

والبنين . وأبدع ما في هذه الرواية حديث المرأة التي أتت شيخاً من قبيلة هوراس
تخبره بموت ابنه في حرب لهم مع قبيلة كورياس وبنجاة ولده الثالث بالفرار من
ميدان الحرب فتجلد الشيخ على موت ابنه وغضب من فرار ولده الثالث . فقالت له
المرأة « ماذا تريد ان يفعل وهو وحده مع ثلاثة من أعدائه » فأجابها الشيخ « أريد
ان يموت » . ومن أئمة الادب المؤسسين لطريقة (كلاسيك) راسين (١٦٤٩ -
١٦٩٩) وكان معاصراً لقورنيل ورقباً له . نظم رواية اندروماخه ونسجها على
منوال رواية بهذا الاسم لاحد شعراء اليونان الاقدمين ثم درس تاريخ العبرانيين
ونظم رواية « استير » ورواية « أتالي » التي قال فيها فولتير بأنها أحسن ما ألفه
العقل البشري وسموا هذا النوع من الروايات الغامضة التاريخية « تراجيدي » . ومن
مشاهير أدبائهم المنقذين بوالو الشاعر الهجاء مؤلف المزليات وصاحب المذهب في
فن الادب . ومواير مؤلف المضحكات المسماة كوميدى وفنون مؤلف تيلماك
المنزجم للعربية والمطبوع في بيروت وترجمه للتركية يوسف كامل باشا بألفاظ
لقوية وعبارة عويصة وترجمه احمد وفيق باشا بألفاظ سهلة . ولافونتين مؤلف
الحكايات المنظومة على السنة الحيوانات وكانت المدارس الابتدائية تعول عليها في
تدريس اللغة الفرنسية وتحفظها للاطفال وأما اليوم فقلت الرغبة فيها . ثم ظهر
مونتسكيو مؤلف (اسباب اعتلاء الرومانيين وسقوطهم) و (روح القوانين)
و (الرسائل العجمية) . وبوفون مؤلف التاريخ الطبيعي وفولتير الشهير الذي لم يدع
باباً من أبواب الكتابة وفنون الشعر والانشاء الا طريقة . وديدرو صاحب
الانسكلوبيديا وجان جاك روسو الذي هيج الافكار بمؤلفاته وهما حدوث الانقلاب
لكبير وبرناردن دوسن بير مؤلف بول وفيرجيني وغيرها من القصص والسياحات

١٧ الطريقة المدرسية والطريقة الرومانية في أدب الافرنج

وما أخذوه من ذلك عن العرب

أدب كل لسان - كما لا يخفى - هو مجموع ما حصلت الاجادة في تأليفه

بذلك اللسان من فني المنظوم والمنثور . فمن أمعن النظر في أدب اللسان العربي وجد فيه طرقاً كثيرة ومذاهب شتى للكلام ورأى فريقاً من الذين احرزوا قصب السبق في أدب العرب يتوخى حفظ الالفاظ وتصنيعها وفريقاً آخر يخنار ضبط المعاني وترتيبها . وعلم ان لكل واحد من أئمة البلاغة وأمرء الفصاحة منهاجاً معروفاً وطريقة مألوفة . فلو راجعنا البصر في رسائلهم المنشورة وتاملنا طرز انشائها لتبين لنا ان منهم من سلك طريقة الاصل او طريقة السجع أو طريقة الجاحظ امام الادب ومنهم من جمع بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين حتى خالص لنفسه طريقة . ثم لو أعدنا النظر ثانية في نظم أشعارهم لظهر لنا ان منهم من نسج على منوال شعر الجاهلية ولم يخرج عن الاساليب التي راعوها ومنهم من لم يجر على أساليب العرب المتقدمين كالمتنبي والمعري بل اتخذ كل منهما منوالاً خاصاً لنسج كلامه وأوجد قالباً جديداً لبناء شعره فأصبح في الادب اماماً يقنّدى به . ثم اذا بحثنا في مؤلفات أولئك الائمة باعتبار آخر رأينا منهم من أطلق العنان للخيالة الشعرية فأتى بالمعجز من آيات البيان ومنهم من استغرق في الحب استغراق ابن الفارض وتجليه . واذا وصفوا الامكنة والاشخاص أو المواد والمعاني منهم من يصور لك الموصوف على حقيقة بلا خلف فيه ومنهم من يجمل وصفه يربو على الموصوف ويتعداه أو يقصر عنه . ثم اذا استقصينا البحث نجد طائفة من أمرء البلاغة قد تركوا لغة مضر وما فيها من الاعراب ونظموا أشعارهم بلسان الحضر وهي اللغة الدارجة في أمصارهم لان البلاغة لا تختص بلسان مضر بل توجد فيه وفي لسان الحضر وفي غيرها من الالسن الاعجمية . ونجد منهم ايضاً طائفة اخرى في الاندلس وغيرها خرجوا عن اوزان العروض المعروف عند العرب الى اعاريض مختلفة ومقاطع متفاوتة . الى غير ذلك مما هو مفصل في مواضعه ومعلوم عند اربابه سيما بعد طبع كتب الباقلائي والجرجاني وغيرها من الائمة الواضعين لفن الانتقاد الادبي

فالامم الاوروبية على اختلاف قومياتهم وتفرق لغاتهم ظلوا لاواخر القرن الحادي عشر للميلاد محرومين من الادب وفنونه ولم يكن فيهم الا أفراد من القسوس

والاساقفة يحفظون في الاديرة شعر فرجيل اللاتيني ولا يفهمون مفزاه كما يحفظ مشايخ الاعاجم في زماننا شعر المتنبي والمعلقات . ففي أوائل القرن الثاني للهجرة والثامن للميلاد أخذت الافكار تتبادل بين المسلمين وبين أمم أوروبا بامن الاسبانيين والاطليان والافرنج ودامت الصلات لا تنقطع بين الفريقين المتحاربين لا في الحرب — بواسطة الاسرى والسفراء — ولا في السلم بسبب الاخذ والعطاء . وكان الارسخ قدماء في الحضارة يكسب جاره أدباً وعرفاناً . وفي القرن العاشر للميلاد تغلب البابا سيلفستر الثاني على التعصب الديني وخرج من مدينة أوريانق مسقط رأسه وقطع عقاب البيرينه ومياه الوادي الكبير وجاور في اشبيلية ثلاث سنوات وفتح لقومه باب العلم والمعارف فدخلوه طوعاً أو كرهاً وارتحل الافرنج في طلب العلم الى مدارس الاندلس وحضروا على مشايخها وعادوا لاوطانهم متنورين يلقون الدروس في ساحات المدن الكبيرة وتجتمع حولهم الطلبة والعوام على مالوف العادة الجارية ليومنا في المدارس والجوامع الاسلامية . فأدرك الناس فوائد العلم وقرب الملوك والامراء منهم علماء المسلمين وأغدقوا عليهم . فكان الشريف الادريسي صاحب الجغرافية عند رجار المعروف عندهم بروجر الثاني ملك صقلية ونابولي وهو من سلالة الملوك النورماندين . وكان احناد ابن رشد المتضلعون في علم الحيوان والنبات عند خلفاء رجار في مملكة صقلية ونابولي المعبر عنهما بالصقليتين . فكان مثل هؤلاء كمثل الاوروبيين المستخدمين اليوم في الممالك الشرقية . وظل الافرنج بعد استرداد صقلية يكتبون بالعربية على المباني العمومية والعمارات الملوكية واستعمل علماءهم اصطلاحات العرب العلمية في جميع أوروبا . وفي القرن الثالث عشر للميلاد فتحوا مدرسة للطب والعلوم في مدينة مون بيليه القريبة لمرسيليا وجاءوا لها بالمعلمين من عرب الاندلس ويهودها المستعربين فكانت تلك المدرسة أقدم المدارس في أوروبا بعد مدرسة ساليرن القريبة لنابولي . ولم تزل مدرسة مون بيليه عامرة يقصدها طلبة العلم من الاستانة ومصر وغيرها من بلاد الشرق . ثم في سنة ١٣٢٣ أنشأ أدباء الافرنج في مدينة طولوز التي فتحها العرب سابقاً جمعية أدبية لم تزل زاهرة الى يومنا هذا وتسمى جمعية لعب الازهار وتفرق

في كل سنة على نوابغ الشعراء عشر جوائز مصوغه من الذهب والفضة على هيئته الازهار وكان ليفيكتور هوغو منها اوفر نصيب كما تقدم . ومعلوم ان العرب اقاموا مدة بتلك الاصقاع وحرثوا أرضها وتزوجوا بناتها وعمرت بهم مدينة أربونة (ناربون) وقرقشونه (قرقسون) وفراقسنه وكانت مستعمرة للعرب في شرق مرسيليا . وقسطل سارازين ومعناها قلعة العرب وهي في الشمال الغربي من طولوز

فتعلم الافرنج من العرب القوافي ورقة الغزل وأدب النظم والنثر وتلحين الاغاني والشعر ونقلوا عنهم القصص والحكايات والنوادر وضروب الامثال والحكم المنقولة عن الفرس والهنود كما هو مفصل في تواريخ الادب الفرنسي . والى ذلك أشار الموسيو رينه دوميك في كتابه المتداول بأيدي طلبة العلم في عموم المدارس الفرنسية . وبعد ان اطلع الافرنج من كتب الاسلام على ما عند اليونان من الفلاسفة والحكمة اقبلوا على درس اللغة اليونانية ولم يهملوا كتب أدبها كما أهملها العرب من قبلهم . بل تهافتوا على درس أدب اليونان واللاتين وعلى حفظ أشعارهم والتمثل بها . وهاموا في قص قصصهم وفي تشخيص رواياتهم لان فن التشخيص او التمثيل كان شائعاً عند اليونان والرومان والف أدباؤهم كثيراً من الروايات واشتهر منها مؤلفات اوربيد وسيمارواية اندروماق التي نسج راسين على منوالها . ولا يزال السياح يشاهدون في أتينة على سفح الجبل تحت قلعة الاقروبول اثار المرسحين العظميين اللذين هما من بقايا التمدن القديم

وكان اسبق امم اوربا الى تحصيل فنون الادب الاسبانيول والظليان المجاورون للعرب . فظهر في الاولين من فحول الشعراء لوب دوفيكه ونظم نحو الف وثمانماية رواية تمثيلية وظهر فيهم أيضاً الشاعر قالدديرون ولوقين وغيرهم . وفي الظليان ظهر الشاعر دانتي (١٢٦٥ - ١٣٢١ م) وطارله ذكر في العالم وهو يعد في مصاف اكبر شعراء الامم القديمة والحديثة وسبب شهرته كتابه الموسوم بالكوميديا الالهية - ديفين كوميدي - الفه في غضون سنة ١٣٠٠ م وجعله على ثلاثة أبواب باب في جهنم وباب في الاعراف وباب في الجنة . وسمى الباب منها بالنشيد وقسمه الى مائة

غناء كل غناء يشتمل على ١٣٠ او ١٤٠ بيتاً . وافتتح كتابه بباب جهنم وصور نفسه مشرفاً على غابة مظلمة نقشع الجلود من سماع وصفها . وهم بدخولها لو لم يعرضه ثلاثة سباع كاسرة . وبينما هو بين أظفار المنية واذ ظهر له فرجيل الشاعر اللاتيني وعرض عليه ان يكون قائداً له في الاعراف والسير فقط لانه لا يستطيع دخول الجنة ولا وطر عتابها لكونه من عبدة الاوثان . فقبل دانتي بقيادة فرجيل له وسارا معاً في عالم أهل النار . وأطنب الشاعر في وصف أصحاب السعير وصور عذاب الذين مر بهم من الظلمة والجبارين وأتى على قصة ايكولين وكان جباراً عنيداً في مدينة بيزا فوقع بأيدي أعدائه فوضعه مع أولاده في برج وسدوا عليهم جميعاً فاشتد به الجوع وأكل أولاده ثم هلك . فوصف دانتي جميع ذلك بصورة هائلة على الاسلوب المعروف بالدراماتيقي . ولما أدته خاتمة المطاف الى الجنة وجد بها بياتريس وكانت من ربات الجمال المشهورات بمدينة فلورانس وقيل كانت معشوقته فتلقته واخترقت به طبقات الجنة المسيحية او طباق السموات فلقى فيها كثيراً من الابرار والقديسين والملائكة المقربين وباحثهم بالمسائل اللاهوتية والعلوم الالهية والكلامية وجمع دانتي في مؤلفه علوم العصر وآدابه ومعارفه ووضع به أساس اللغة الطليانية فكان كتابه كدائرة المعارف والاداب . ولم يزل يستوقف انظار الادباء بحسن ترتيبه وجودة سبكه وبما فيه من المهارة العجيبة في التنقل من مبحث الى آخر . فالكوميديا او المضحكة الالهية اشبه برسالة الغفران التي حررها المعري قبل تأليف الكوميديا باكثر من قرنين وقدمها جواباً لرسالة وردت عليه من أحد اصحابه الافاضل في حلب وانتقل فيها لذكر الجنة ونعيمها ولذكر من دخلها من الشعراء الذين يتبعهم الغاؤون وفي كل واد بهيمون . وما كانوا يدخلونها الا بعمل صغير كان له عند الله اجر كبير فغفر لهم ما تقدم من الذنب وما تأخر وقالت لهم الملائكة طبت فادخلوها خالدين واقتفت الامم الاوروبية أثر الاسبانين والاطليان في العدول عن اللغة اللاتينية الى وضع لغاتهم القومية وتدوينها . وأقبل الادباء في انكلترة غلى التأليف باللغة الانكليزية وأصلح الفرنساويون لسان رومان وهذبوه فاصبح اللغة الفرنسية .

واقننى الالمان أثر من ذكر من الامم ودونوا لغتهم الالمانية . وكان فن الادب منحصراً في الخواص شأنه عند العرب ولا نظر للعوام فيه ولذا اختار الادباء اصطلاحات مخصوصة من اللغة وتصنعوا في كلامهم وتعالموا له . لان الخواص من الناس يألفون من استماع الكلام السوقي المبذل ويألفون الغوص على المعاني واعمال الذهن في استخراجها . ثم ظهر في فرانسسا الكسندر هاردي وهو أول من أصلح فن التمثيل واللعب على المراسح . واتخذ الروايات الاسبانية نموذجاً له ونظم على منوالها كثيراً من الروايات الفرنسية وشخصها على مسرح باريس في حدود سنة ١٦٠٠ م . وفن التمثيل كما لا يخفى هو من اكبر العوامل على ترقى فنون الادب واصلاح طرق النظم والنثر . لان الاديب يخاطب بهذا الفن الجمهور وأصناف الناس فيتميز في كلامه التعبير الذي يستطيعون فهمه والاساليب التي لها وقع في نفوسهم بخلاف من يؤلف كلامه للخواص فانه يعمل في التأليف ويتصنع ليظهر تفننه واقتداره على ايراد النكت والدقائق التي لا يفهمها الا أصحاب الغوص على المعاني

والتمثيل كما لا يخفى مشتق من ضرب المثل . فان الرواية التمثيلية ما هي الا ضرب مثل جامع الاطراف والتفاصيل . وأحسن ضروب الامثال وأبدعها وردت في القرآن الكريم الذي تحدى به النبي عليه السلام العرب وقال أتوني بسورة من مثله فقالوا انت تعرف من أخبار الامم ما لا نعرف فذلك يمكنك ما لا يمكننا . قال فهاقوها مفتريات . فالرواية هي أسلوب من أساليب المفتريات . وأساس فن التمثيل عند الاوروبيين مستفاد من أعمال المتعبدين في الكنائس ومن تشخيص ما شبه لهم في المسيح ابن مريم عليهما السلام من القتل والصلب ومن تمثيل آلام الذين اقتدوا به من القديسين والشهداء في سبيل النصرانية . ولما درس الافرنج اليونانية واللاتينية وانتشقت أساليب هاتين اللغتين في نفوسهم حذوا حذو شعراء اليونان والرومان واتخذوا رواياتهم منوالاً نسجوا عليه أمثالها من كلمات أخرى فرنساوية وربما ترجموا أبيات شعرهم ونسجوا معانيهم وصاغوها في الفاظ فرنساوية من الطبقة العليا وتأنقوا فيها نهاية التأنيق وراعوا قواعد النحو والصرف والعروض وبقية علوم الآلات المدرسية

والاساليب المتعارفة فجاءت أبياتهم متينة وقوافيهم عامرة وكل بيت منها كلام تام في مقصوده ويصاح ان ينفرد دون ما سواه . ولم تحصل الملكية في ذلك الا لمن هو على جانب من العلم وله الحظ الاكبر من الذوق السليم لاحتياجه الى تلطف كثير في استحصال الملكية حتى يفرغ الكلام الشعري في قوالبه التي عرفت له . وباع الادب الفرنسي في عصر لويس الرابع عشر أي من سنة ١٦٠٠ الى سنة ١٧١٥ أوج الكمال ومنتهى البلاغة . وأصلح الادباء فنون الادب ورتبوها على القواعد وهذبوها ووضعوا المؤلفات الجليلة والروايات البديمة وظنوا بأنهم لم يتركوا شيئاً للمتأخرين . فكان عصر لويس الرابع عشر في الادب عصرًا مدرسيًا (كلاسيك) أشبه بعصر أغسطس عند الرومان وبالعصر بيرقاس عند اليونان . ونبع من شعراء الفرنسيين في فن المفاجعات (قراجيدي) الاديب بييرقورنيل والشاعر المفلق راسين . ونبع في فن المضحكات (كوميدي) الاديب مولير . ونبع في فن الهجويات (ساتير) الاديب المدقق بوالو . فهوؤلاء من نوابع العصر المذكور الذي بلغ اللسان فيه منتهى الفصاحة والبلاغة . ومن أحسن مؤلفات بييرقورنيل رواية السيد والكاهنة عربية لقب بها أحد أبطال الاسبانيين في القرن الحادي عشر للميلاد . وبيان ذلك :

ان العرب بعد استيلائهم على جزيرة الاندلس ^(١) التجأت بقية السيوف من القوط الى جبال استوريا وتحصنوا فيها ولما شعثهم وشكلوا حكومات وامارات صغيرة فلم يعبأ بهم العرب وحسبهم من قطاع الطرق المتشردين في الجبال ونشغلوا عنهم باعمار تلك السهول وتمتعوا برياضها الغناء . فمن الامارات التي أسسها القوط في شمال الاندلس استورية وليون وقشتالة وكان المالك عليها في ابتداء القرن الحادي عشر للميلاد فرد بناند الاول فأوصى بتقسيم الملك بعد وفاته بين أولاده فكان ابنه الفونس السادس على ليون الاسبانية وابنه الثاني سانش على قشتالة . فالسيد صاحب

(١) قالت العرب جزيرة الاندلس وجزيرة العرب وذلك اخف من قولنا شبه جزيرة الاندلس وبحيث جزيرة العرب والاندلس تطلق على مملكة اسبانيا ومملكة البورغال ماعدا جزر صغير في الشمال الغربي من مملكة اسبانيا

الرواية ولد سنة ١٠٣ وسمي رودريك وكان أبوه الدون ديغوا من اشراف القوط فأدخله في سراي فرديناند الاول وبعد وفاته دخل في خدمة ابنه سانش . ولما اُقتل الاخوان وانهمزم سانش في احدى المواقع قوى السيد عزمه وأشار عليه بالمشورات الحسنة فاتبع رأيه وانتصر على أخيه وحبسه وتفرد بالملك على ليون وقشتالة فكان السيد له نديماً ووزيراً وناصحاً ومشيراً . ثم حدثت فتنة وقتل سانش في محاصرة زاموره وخلفه أخوه الفونس السادس فأمن السيد وأقسم له الايمان المخلطة بأنه لا مدخل له في قتل أخيه سانش وقر به منه وزوجه بواحدة من قرباته وكانت على رواية التاريخ عجوزاً شنعاء ولم ينزوجه السيد الا طمعا . وبعد ان تم الامر لالفونس السادس وأمن غوائل الرقباء فعل بالسيد ما يفعله المستبدون من الملوك وصادره وأراد الفتك به ففر من ملكه الى الحدود الاسلامية وعمر قلعة بالقرب من سرقسطة (ساراغوس) بين دارقه والقنيز . ولم يزل أثر تلك القلعة على صخرة عالية تسمى صخرة السيد كما تنسب الصخرة التي في رونسيهواي في مدخل جبال البيرينة الى رولان . واستقل السيد بحكمه في تلك القلعة وكان يتعيش هو ورجاله من النهب والغارة على القرى المجاورة ومن قطع الطرق على القوافل الاسلامية والمسيحية . فاشتهر خبره وتحدثت الركبان بشجاعته ثم اتفق مع أمير سرقسطه وأمير البراسين وهما من أمراء المسلمين وقاتل معهما أمير ارامون المسيحي وحارب كذلك عسكر الفونس السادس والمتفقين معه من أمراء المسلمين لانهم كانوا متفرقي الكلمة يقاتل بعضهم بعضاً . فجاءهم يوسف بن تاشفين بمساكر المرابطين من افريقية ووجد كلمة الاسلام في عموم جزيرة الاندلس مع انه كان اميا بربريا . فوقف السيد امام المرابطين ودفع هجماتهم عن بلنسية ولم يمكنهم من الاستيلاء عليها الا بعد وفاته في سنة ١٠٩٩ م . فتحدث القريب والبعيد بشجاعة السيد وثبات عزمه وطار له ذكر بين الفرسان ونظمت فيه القصائد العنترية او الهلالية بلسان رومان . ثم جاء قورنيل ونظم فيه روايته المشهورة بدون الثفات للتاريخ ولا تعمق فيه بل نسج على منوال القصائد الرومانية وتخيل فيها تخيلاته الشعرية وجعل تلك المرأة التي تزوجه السيد

بديعة الحسن والجمال . ولما عشقها وعشقته اتفق ان ولدها أهان والده فانتقض عليه السيد وقتله وتمكن من تسليط ارادته على عشقه . أما اسم السيد فأطلق عليه حينما كان متفقاً مع أمير سرقسطه وأمير البراسين وحارب معهما ولم تنعم في التاريخ لفهم هل دخل السيد في الاسلام أم لا . ومن أبيات قورنيل في روايته المذكورة قوله : (كلاهما سميّاك سيدهما بحضوري لان السيد بلسانهم تعادل كلمة سنيور)

أما ما ألفه راسين من الروايات الموافقة تماماً للقواعد المدرسية فاحسنها رواية (اندروماق) ونسجها على منوال سمييتها الرواية اليونانية المؤلفة قبل الميلاد بأربعة قرون وتخالف رواية السيد في وحدة الزمان وفي أخلاق بطلها لتغلب العشق عليه وانتصاره على ارادة العاشق . ومن روايات راسين استير الاسرائيلية ويشخصها أحياناً طلبة المدارس في بيروت . ورواية اتلي وهي من الاسرائيليات أيضاً - قال فولتير انها أحسن محصولات العقل البشري . ومن أحسن ما ألفه موابر في المضحكات رواية تارتوف وهو رجل مرآئي في نسكه وعبادته أغفل بحبته أحد المتولين من البسطاء واستولى على أمواله وعماله فصار اسم تارتوف كناية عن الرياء والخبث . وقد أتى المصري بأبيات كثيرة تشتمل على مضمون هذه الرواية كقوله :

وليس عندهم دين ولا نك (فلا تغرك أيدٍ تحمل السبحة)

وكم شيوخ غدواً بيضاً مفارقهم يسبحون وباتوا في الحنا سبحة

والف بوالو كتاب المهجويات (ساتير) ووضع في قواعد الشعر كتاباً سماه الفن أو الصناعة الشعرية (آربويتيك) وأنكر الشعر والشعراء في المتقدمين وقال لم تأت فرانساً بشاعر قبل (ماليرب) أي ان الشعراء الذين جاؤا قبل دخول القرن السابع عشر لا يستحقون الذكر في مصاف الشعراء لعدم اتيانهم بالكلام المدرسي المنتظم المعقول ولتألفتهم على التصنع البارد في الكلام وازهار الرونق الكاذب فيه وبيان مهارتهم وعلمهم بكل ماهو من فضول الكلام ولذا فكلامهم لا طعم له وفيه كثير من الغرور والاعجاب . فبوالو بالغ في كلامه وحط كثيراً من كرامة المتقدمين ولكنه أصلح أساليب الشعر الفرنسي كما أصلح بأسكال أساليب النثر . وكان بأسكال اماماً

في العلوم الرياضية والطبيعية . واقنفي أثر بوالو في انتقاد كلام المتقدمين الوزير ضيا باشا والف مجموعة سماها الخرابات خرب فيها كثيراً من أشعار الفرس والترک والعرب المتقدمين عليه وكانت وفاته في بروسة سنة ١٢٩٥ هـ فجاء بك امام الادب في اللسان العثماني وكتب عليه انتقاداً سماه تخريب الخرابات ونشره في مطبعة أبوالضياء فالغاية التي تتطلبها أئمة الادب العثماني كاللذين ذكرا وعبد الحق حامد بك مستشار سفارة لوندرة واکرم بك وسميد بك من أعضاء الشورى والمعلم ناجي افندي المتوفى منذ بضع سنين وبقية النشأة الجديدة - هي تخليص لسانهم من مبالغات الفرس الاعاجم والسلوك فيه منهج بوالو ورأسين وقورنيل ومواير وبقية أدباء عصر لويس الرابع عشر . لان هؤلاء الادباء يذهبون الى أن التخیل الشعري ينبغي ان يكون مقروناً بالتمثيل . فعمد هم ان الشعر ليس أعذب به أكذبه بل أحسنه أصدقه كما قال خسان :

وان أحسن بيت أنت قائله بيت يقال اذا أنشدته صدقا

واشترطوا في الروايات التمثيلية ثلاثة شروط

وحدة الزمان

وحدة المكان

وحدة العمل

أي ان الحادثة الممثلة على المسرح يشترط تصور حدوثها في زمن واحد أي في ظرف ٢٤ ساعة مثلاً ليكون التمثيل أقرب الى الحقيقة وأشبه بالواقع لان حوادث الاربعة والعشرين ساعة يمكن اختصارها وتمثيلها في ساعتين . فراسين راعى هذا الشرط في رواية اندروماق . وقورنيل خالفه في رواية السيد ونقل بطل الرواية من سنة الى أخرى . فالقائلون بهذا الشرط تنقبض نفوسهم من تمثيل الحوادث التي حدثت في ازمان متطاولة . وقصدهم من وحدة المكان اشتراط وقوع الحادثة في مكان واحد لئلا ينتقل ذهن السامع من مكان لاخر فيبتعد بذلك عن الحقيقة . ولذا كانت مراسح القائلين بهذا الشرط ثابتة المناظر من أول اللعب الى آخره . بحيث

اذا رفع الستار عن مكان بقي المكان بهينه في الفصل الثاني وما بعده من فصول الرواية لمراعاة شرط وحدة المكان . والمراد من الشرط الثالث ان يكون بطل الرواية واحد وعروسها واحدة ثم السعي وراء عمل واحد وهو الحب مثلاً وينتهي بفناء المحبين او أحدهما او انتصارهما أو تغلب ارادة الماشق على عشقه كما فعل السيد وقتل ابا معشوقته أخذاً بثأر أبيه أو بالعكس كما قتل سفير اليونان زوج محبوبته في رواية اندروماق وخان بذلك وطنه ولم يرع عهد من أئتمنه كل ذلك مرضاة لمعشوقته

فمصدر هذه الشروط والقيود وأمثالها هو التمثل في الكلام الادبي وتحكيم الذوق السليم في فنونه . ولم يكن الادباء قبل عصر لويس الرابع عشر يتعمقون في نظمهم ونثرهم ولا يحكمون الذوق السليم فيها . ولذا كانت فنون أدبهم مشحونة بالخرافات والباطيل وبما هو خارج عن الطبيعة والاعتدال وخارق للعادة ومشتل على المبالغات العجيبة وعلى زخرف القول . فلما تعمق الادباء في كلامهم وجدت الطريقة المدرسية التي قيل لها (كلاسيك) . والكلمة كما هو معلوم مشتقة من الصف والدرس والمدرسة . لان السالكن هذه الطريقة لا بد لهم من درس آثار الواضعين انواعها والارتياض في كلامهم لتحصل لهم ملكة في النظم والنثر . واما الطريقة المدرسية وشيخها الاكبر راسين

١٩ — الطريقة المدرسية عند الافرنج

فروايات الادباء والشعراء المتقدم ذكرهم يقال لها روايات مدرسية كما يقال للكتاب الذي يدرس في المدارس كتاب مدرسي ويقصد به الكتاب الاقرب الى مرتبة الكمال في الفن الذي هو مؤلف فيه . فرتبة الكمال يمكننا تصورها والاحاطة بها في العلوم المدرسية كالنحو والصرف والبيان والمعاني والعروض أو الفقه والحساب . ولكن في الادب وفي الروايات التمثيلية ليت شعري ما هي مرتبة الكمال ؟ ففي جواب هذا السؤال وقع الاختلاف بين مشايخ الطرق الادبية من مدرسية ورومانية وحقيقية أو طبيعية وفي نهايتهم الطريقة الانسانية وهي موضوع حديث القوم في يومنا بسبب كتاب نشره الموسيو

فيكتور بيرار مستشار نظارة البوستان والتغراف وبحث فيه عن الأوديسة التي نظمها
أوميروس الشاعر اليوناني • وكان الموسيو بول آدم بحث عن هذه الطريقة الادبية
الجديدة في مقدمة قصته التي عنوانها (اسرار الجمهور) (مستيردوفول) وبول آدم
يحرر اليوم في جريدة الجرنال الباريسية

فأصحاب الطريقة المدرسية يذهبون الى ان مرتبة الكمال في الادب هي « أولاً »
تمام النسبة التي بين أساس الفكر وبين شكل التعبير • أي بين المعاني التي يحتلها الشاعر
وبين قوالب الالفاظ التي يسكب تلك المعاني فيها • فعلى مذهبهم لا يكفي ان يكون
المعنى حسناً بل ينبغي ان يكون الحسن أيضاً في كيفية أداء هذا المعنى • فالكلام الجاري
على الطريقة المدرسية هو معنى بديع في لفظ حسن (١) • فهذه الموازنة التي بين أساس
الفكر وشكل التعبير هي الخاصة المميزة لمؤلفات العصور المدرسية كعصر لويس الرابع
عشر وعصر اغسطوس وعصر بيرقلس • والعصر المدرسي لا يوجد عند جميع الاقوام
بل بعض الامم ليس لهم عصر مدرسي ولا أدب مدرسي مطلقاً ولا يتيسر لهم الوصول
الى مرتبة الكمال في الادب أبداً • لانهم اذا تمكنوا من الاتيان بالمعاني البديعة فلا
يتمكنون من اداء هذه المعاني بالالفاظ الحسنة ولا يقدرّون على الترجمة عن أفكارهم
حق الترجمة لاحد السببين : اما ان اللسان الذي يتكلمون به لم يزل على خشونته ولم
يكتسب بعد الشكل البديع • وأما ان تكون أساليب الفن ولوازم الصناعة الادبية لم
تعرف بعد عند المتكلمين به • ثم انهم يشترطون في التأليف المدرسي ان يكون ظهوره
في الزمن الذي بلغت اللغة فيه اوج الكمال ويقولون لا بد من هذا الشرط • ويعترضون

(١) قال ابن خلدون : الذي في اللسان والنطق انما هو الالفاظ • وأما المعاني
فهي في الضمائر • فالمعاني موجودة عند كل واحد • وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضي
فلا محتاج الى صناعة ؟؟ وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج لصناعة (Art) • وهو
بمثابة القوالب للمعاني • فكما ان الاواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب
والفضة والصدف والزجاج والخزف • والماء واحد في نفسه • وتختلف الجودة في الاواني
المملوءة باختلاف جنسها لا باختلاف الماء • اه كلامه • وفي بعضه نظر ولا يخفى ان الشاعر
انقلب أقدر من غيره على رؤية الاشياء ببصره وباصرته وعلى التعبير عنها بلسانه • فالمعاني
المتحصلة في ذهنه لا توجد عند كل واحد

على أصحاب الطريقة الرومانية لانهم تجاوزوا النسبة التامة التي بين أساس الفكر وشكل التعبير • ولم يكتبوا بالتعبير البسيط الذي يؤدي معانيهم تمام الاداء • بل أرادوا زيادة عن هذه النسبة التامة • بل تطالبوا أزيد من ذلك أيضاً • فارجعهم تهافتهم الى الوراء وساقهم الى الاساليب الاجنبية وأوصلهم الى طريقة لوب دوفيكه الاسباني والى طريقة بايرون وشكسبير الانكليزيين

ويذهب أصحاب الطريقة المدرسية الى ان مرتبة الكمال في الادب هي « ثانياً » وجود موازنة بين التخيل الشعري وبين العقل • بل يشترطون وجود هذه الموازنة بين جميع الحواس • فاذا كان التخيل الشعري في التأليف الادبي منافياً للعقل فلا يعتبرون ذلك التأليف على نهج الطريقة المدرسية • مثال ذلك مبالغات شعراء الفرس ومن خالطهم من شعراء الترك والعرب • ومبالغات العرب أقل من غيرها لا سيما في كلام الجاهلية وأهل الطبقة الاولى من الاسلاميين الذين لم يكثر اختلاطهم بالاعاجم ولا حصلت لهم ألفة بفنون أدب الفرس ولا بتعبيراتهم • ومن هذه المبالغات قول المتنبي في صباه يصف ما فعل به العشق :

أبلى الهوى أسفاً يوم النوى بدني الى ان قال : لولا مخاطبتي اياك لم ترني
فهذه المبالغة لا تنطبق على العقل ولا تحدث في العادة والمتنبي ولد في الكوفة وذهب الى فارس واختلط بادباء العجم • ومن مبالغات نفعي كبير شعراء الترك المتقدمين (القرن الحادي عشر للهجرة) قوله بالالفاظ الفارسية والتركي والتركي يصف يوماً شديداً الحر :

(..... كيم برمور بردم كرم ايله ايلريدى درياي سراب) • ومعناه ان الخلة بنفس حار تجعل السبع البحور سراباً • ومن قرأ ديوان نفعي حسب ناظمه من زمرة عوج بن عناق وظن تمثال رودس الذي كانت المراكب تمر من بين ساقيه صورته ومنها قول ضيا باشا — وهو في مقدمة أدباء النشأة الجديدة العثمانية وله وقوف على الفرنسية — باللسان العثماني الجديد الذي يكثر فيه استعمال الالفاظ العربية • (سرور افلا كه سرچكمش مشال قديار) • ومعناه مثل قد الحبيب كاشجار سرور تناطح برؤوسها الافلاك • ويذكرني هذا ما قاله احد الواعظين في جامع ايا صوفيا بان من صام كذا وصلى كذا وسبح كذا في ليلة القدر التي هي خير من الف شهر رزقه الله في الجنة حورية طولها ما بين بعد المشرقين • فان كنا نستهن طول الانسة ايلابوين أطول

نساء العالم ولا تتوق النفس الى قربها وهي لا تزيد عن الطول المعتاد باكثر من قدمين فما بالك ان زاد قدُّ عروسنا الميال عن ذلك

ويقسم علماء المعاني المبالغة الى ثلاثة أقسام : وهي ما كان وقوعها جائزاً عقلاً وعادة ويقال لها التبليغ • ومعقولة وهي ما كان وقوعها جائزاً عقلاً لا عادة ويقال لها الاغراق • وغير معقولة وهي مالا يجوز وقوعها العقل ولا العادة ويقال لها الغلو • فاهل الطريقة المدرسية يرفضون الغلو والاغراق في الكلام • ويقولون بان بعض الامم او بعض العصور في الامة الواحدة لها تخيل شعري وليس لها عقل • وقد جاءت هذه الامم او هذه العصور بكثير من المؤلفات البديعة التي لا تخلو من الفوائد ولكن مؤلفاتهم ليست بمدرسية لوجود التخييل الشعري فيها بدون عقل • كما هو الحال في ماها بهاراته ورامايانه من أشعار الحماسة الهندية وفي الشعر الفارسي والتركي القديم وبعض أشعار العرب المخالطين للعجم • فمن خصائص العصور والآداب المدرسية تحكيم الذوق السليم في مؤلفاتها والذوق السليم لا يميل طبعاً الا للجمال والتناسب والقياس ولا وجود لما ذكر في زمن تشكل اللسان ولا في زمن انقراضه

ولاصحاب الطريقة المدرسية مسألة ثالثة أيضاً وهي محبتهم الصدق والحقيقة • فهم يذهبون الى ان أحسن الشعر صدقه لا أكذبه • ولكنهم لا يقصدون باتباع الحقيقة تصوير الحقيقة بعينها تصويراً تاماً كما ذهب اليه أصحاب الطريقة الحقيقية وورد في مؤلفات امامهم اميل زولا • كلا بل يقولون فقط بلزوم ارتباط التصوير الذهني بالشيء الحقيقي وبان التصوير الذهني وحده في الشعر لا يكفي

وعندهم ايضاً ان التأليف المدرسية يجب ان تكون منحصرة في تصوير الجميل والبديع فالتأليف المغيرة للآداب الاخلاقية والموجبة لاشمئزاز النفس يندر فيها الجمال فلا تكون مدرسية • فهم لا يطالبون الكاتب الذي يسلك طريقهم بان لا يحرك قلمه الا في المواعظ الحسنة والاخلاق المستحسنة ولا يصور فيها شيئاً غير الجمال • ولكنهم ينذرونه بسقوط مؤلفاته ان ملاها بوصف الاشياء القبيحة والافعال الشنيعة • كما فعل زولا في كتاباته وصور فيها بؤس المعيشة وسفالة الحياة • ونظم احد الادباء في العام الماضي رواية صور فيها الامراض الزهرية والعلل الافرنجية التي تحدث من الانهماك في العهر وشرح ذلك على مسرح اللاعب شرحاً يليق ان يكون في غرفة الطبيب المخصصة لمعاينة الامراض السرية • فنع المراقب تمثيلها في باريس كما منع رقصة الشربة والشمعة من

المدرسة المصرية في الممرض الأخير . ويقال بان الرواية المذكورة في غاية من البلاغة وباعثة على التعنف

ويشترطون في الطريقة المدرسية شرطاً أخيراً وهو ان تكون المؤلفات فيها مليحة قومية اي مصورة لافكار القوم الفلسفية ولاحوالهم الاجتماعية . فان كان التأليف الادبي وضع تقليداً الاجانب فلا يكون مدرسياً . فبناءً عليه يكون هذا الشرط مرعياً في المؤلفات التي استخرج صاحب مجاني الادب زبدتها في كتابه لانها من المؤلفات المختصة بالعرب قبل الاسلام وبعده . بخلاف المؤلفات العربية الموضوعة في زماننا على الاسلوب الافرنجي وربما كانت مترجمة عن لسان من اللسان الاجنبية فانها ليست على وفق الطريقة المدرسية . مع ما فيها من الفوائد التي سنذكرها في بحث الطريقة الرومانية

فهذه زبدة الاقوال وخلاصة القواعد التي أسست عليها الطريقة المدرسية . فكان من اتى من الادباء بعد عصر لويس الرابع عشر وهو القرن السابع عشر الذي بلغ اللسان الفرنسي فيه درجة الكمال لا يخرجون في النظم والتأليف عن الاساس الذي وضعه مشايخ الطريقة المدرسية ولا عن الاساليب التي راعوها . ويتكلفون لذلك الصعاب ويعانون طول الدرس ومراعاة القواعد لئلا يتمكنوا من تحسين العبارة ومن تطبيقها على ما يتخيلونه من التشبيه والاستعارات ويلتزمون بعدم الخروج عن أوزان العروض المصطلح عليها بين قومهم وجماعتهم ويحملون كل بيت في الغالب كلاماً تاماً ولا يأتون بشيء من الكلام السوقي المبتذل ولا يصورون رذيلة من الرذائل ولا سوءاً من سوءات الانسان وعوراته ولا يصفون شيئاً من بؤس المعيشة او سفلة الحياة الدنيا . وينتخبون مواضع مؤلفاتهم من تواريخ القرون الاولى اي من تاريخ اليونان والرومان والعبرانيين . فكان كلامهم مشتملاً على التخيل الشعري وعلى التعقل المشروط وجودها في الطريقة المدرسية ولكنه بارد ممل بسبب ما فيه من التصنع والتعمل ومن مراعاة تلك الشروط والقيود التي قيدت عقول اصحابه ومنعتهم عن الخوض في مضمار الوسط الذي هم فيه ويشعرون به ويريدون البحث عنه فيمنعهم مراعاة تلك القواعد والاساليب الانشائية . فمؤلفاتهم مع استيفائها للشروط المدرسية لم تحدث تأثيراً على النفس ولا تهيجاً للمواطف كمؤلفات الطريقة الرومانية لعدم مراعاة شرط الاحساس القلبي فيها . ولذا قالوا بان راسين وقورنيل ومولير وأهل طبقتهم لو اطلقوا العنان لاقلامهم ولم يقيدوها بسلاسل تلك الشروط المدرسية لاتوا باحسن مما جاؤا به من درر الالفاظ وغرر المعاني

فهذا ما كان عليه فن الادب الفرنسي قبيح الانقلاب الكبير ولذا كان الكثير من الكتبة لا سيما النشأة الجديدة يتدمرون من تقيدهم بتلك القيود المدرسية ويرون انفسهم كلمة الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه . فكان مثلهم كمثل غلام في مكاننا اراد التحرير لوالديه فلم ير امامه من نموذج الانشاء سوى ما طبع في الاستانة من رسائل الخوارزمي والبديع الهمذاني . وكانت هذه النشأة الجديدة ترى أيضاً قصور الطريقة القديمة عن حقيقة البلاغة وهي مطابقة الكلام للواقع ومقتضى الحال . لان أصحاب الطريقة المدرسية مع محافظتهم على التعقل في الكلام كادوا بكثرة تشابيههم واستعاراتهم لا يسمون الاشياء باسمائها الحقيقية ويستعملون الحشو ويتكفون للعبارات التي لا لزوم لها . فاذا اراد أحدهم ان يعين الوقت وهو يكتب قصة او رواية ويقول مثلاً قبل مرور ساعة من الزمان دبح عباراته وكثر استعاراته وقال :

(قبل ان يتم العقرب خطاه المنظومة وينقل على مينا الساعة المجلاة ستين خطوة موزونة) الخ

كما فعل الشاعر الفرنسي اندره شينيه وهو خاتمة الشعراء السالكين منهج الطريقة المدرسية وأبلغهم كلاماً . وكانت ولادته في الاستانة وأمه رومية فارتحل الى باريس وصار فيها امام أهل طبقته فلما قتل سنة ١٧٩٤ م مع من قتل من أفاضل الرجال وكبرهم بآلة الكيلويتين انقضت الطريقة المدرسية بعد ان كانت قواعدا وأساليبها هي المريعة بين الادباء . يتبع فيها الخلف اثر السلف . ومع اعتراف النشأة الجديدة بما فيها من القصور والخلل لم يقدّم أحد منهم على تركها ولا الخروج عنها لاوائل القرن التاسع عشر

فقبل هذا التاريخ كان جمهور الناس وعوام الامة في تسبب وغفلة لا يقيدون على المصالح انتظمت او لم تنتظم ويدعون الامور تجري في مجراها حسناً كان او قبيحاً نافماً او مضرّاً كما يجري الماء في الارض الطيبة بدون حفر النهر ولا كرية . وكانوا يستعملون هذا التعبير (ليسه آله) كما نستعمل تعبير (طيب معيش) . ولا يهتمون بالمسائل العمومية والاجتماعية كأنها لا تعنيهم ولا يعود خيرها وشرها عليهم . فلما حدث الانقلاب الكبير في فرنسا سنة ١٧٧٩ م تغيرت البلاد ومن عليها في بضع سنين وانقلبت أفكار الناس وعاداتهم وأخلاقهم وزال عنهم التسبب والغفلة والكسل والرخاوة وشغفوا بحب الانتظام والدقة . فتقيدوا بالمسائل وتبصروا بالامور وكانوا صامتين ناصتين مفكرين

متعقلين لا يضيعون اوقاتهم في مالا فائدة فيه ولا يشتغلون بالعبث من الملهو واعتادوا على الآداب العسكرية في انتظام الحركات والسكنات لان الامة بأسرها حتى النساء والصبيان كانوا باجمعهم تحت السلاح الكامل يكرون ويفرون من غرب أوروبا الى شرقها ومن قارة افريقيا الى قارة اسيا اي من مصر الى سوريا . فكان الواحد منهم لا يهمل في قيامه وعوده أمراً ولا يغفل في ملابسه عن زرٍّ ولا يترك فيها فتقاً بغير رتق واذا وقف استقامت قامته لان الانسان مستقيم القامة واذا مشى او ركب لا يتوكأ على الخدم كما تفعل اكابر بعض الامم دلالاً وعظمة بل اعتمد في حركاته على نفسه . وانتزع من عقولهم اكثر الحرافات والباطيل التي تتولد في الانسان عادة ويكبرها الوهم في مخيلته ما دام في مكانه لا يخرج منه ولا يسمح في الارض فينظر كيف كانت عاقبة المتقين

فانقلاب الاخلاق والعادات والاطوار استلزم انقلاب اللهجة وتغيير التعبيرات ولذا كان العصر الجديد مفتقراً لاسلوب جديد في النظم والنثر وكان رجال العصر يترقبون حصول انقلاب في الادب كما حصل في السياسة والعادات . فولد فيكتور هوغو وللعصر الجديد سنتان وصار رجل هذا الانقلاب الادبي

٢٠ — الطريقة الرومانية

اسلوب الطريقة الرومانية ابتداءً ظهوره في مؤلفات شكسبير امام الادب وامير البلاغة . ثم نسج على منوال هذه الطريقة ادباء الالمان وراجت بضاعتهم فيها . ثم جاء فيكتور هوغو وكشف اساس الطريقة واوضح مزاياها وصار امامها المشار اليه بالبنان

✽ الادب عند الانكليز ✽ فالانكليز كانوا في مقدمة الامم الاوربية التي انتبعت من غفلة القرون الوسطى وبادرت الى اصلاح لسانها ووضع فنون الادب والعلم فيه . وقبل ظهور الادب الانكليزي كان الانكليز انفسهم يعتنون باشعار المداحين وشعراء الربابة من الفرنساويين . وكانت اللغة الفرنساوية لسانهم الرسمي على عهد ملوكهم كليوم الفاتح (١٠٢٧ - ١٠٨٧) ومن خلفه عليهم من السلالة النورماندية . ولذا بقيت الكلمات الفرنساوية مستكثرة في اللغة الانكليزية شأن الكلمات العربية في التركية والفارسية . ثم اشتغل الانكليز بتهديب لغتهم واصلاحها فاصبحت اليوم من اغني اللغات الجديدة ادباً بعد اللسان الفرنساوي . ونبع فيهم وليم شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦ م) وجمع

في مؤلفاته ما تنرد به قورنيل وراسين من فن المبكيات وما اخنص به مولير وبومارش (١) من فن المضحكات وصار اماماً في كثير من الفنون الادبية كفن التراجيديا التاريخية والدرام والكوميديا والاغاني المعبر عنها بالشعر الموسيقي (اريك) . فكان في افانين الادب كما قال الشاعر :

وليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد

والف شكسبير نحواً من ٣٥ رواية ترجمت لجميع اللغات الاوربية وترجمها للفرنساوية فرانسوا بن فيكتور هوغو وطبعت في ١٨ مجلداً . ولم تزل رواياته تمثل على مسرح الفرنسيين والطيان وغيرهما من الامم . وتمثل احياناً في الاستانة وازمير ومصر والاسكندرية ايضاً . واشهر ما يمثل منها (روميو وجوليت) وهما فتى وفتاة تحبان حباً شديداً وقاسيا تباريح الجوى بسبب العداوة التي بين اهل الفتى المحب وبين اهل محبوبته . على مثال ما يقع بين قبائل العرب من العداوات التي تحول بين العاشق والمعشوق . بل على مثال ما يحدث في سوريا وفلسطين بين العائلات والبيوت القديمة من العداوات الجاهلية المانعة لوصول المتحابين ليومنا هذا . ففي اواخر القرن التاسع عشر للميلاد حدث في طرابلس حادثة هائلة تشابه عشق روميو وجوليت من وجوه لاسيا في اقتران المحبين سرّاً بمعرفة فقيه من المشايخ كما اقترن روميو وجوليت على يد الراهب لورانس وافضى الامر الى هلاك المحبين في الحادثتين هلاكاً تذرف الدموع لقص خبره وتنفطر القلوب لمشاهدة تمثيله . فالتهلويل بالموت في الحادثة الممثلة مما يجعها من فن المبكيات . وتزيين المجلس بطرف الراهب اولطف الفقيه مما يقرب الحادثة الممثلة لفن المضحكات الذي مثلناه فيما سبق برواية تارتوف لانها احسن نموذج لهذا الفن . ولكن الفرق عظيم بين تارتوف وبين لورانس . لان تارتوف تمثال مجسم للرياء والمكر يخدع الناس بحيل السحرة بيده ويصيد قلوب المغفلين باظهار النسك وكثرة العبادة . وليس فيه شيء من الظرف والمجون ولا العلم والادب المتصف بهما ابو زيد السروجي بطل مقامات الحريري . بخلاف الراهب لورانس او الشيخ . . . فانهما من ذوي الناموس والوجدان .

(١) بومارش (١٧٤٢ - ١٧٩٩) هو الاديب الفرنسي صاحب رواية (حلاق اشبيلية) و (زواج فيغارو) وقد انتقد في الروايتين المذكورتين على اخلاق المعاصرين وفساد آدابهم وصور فيهما ما يشبه مجنون ابي نواس :

ولم يتداخل كل منهما في الحادثة التي تخصه الا لاصلاح ذات البين . فيظهر الواحد منهما على المسرح بهيئة الكمال والوقار وعيون المنفرجين ترمقه بالاستحسان والاعتبار . ومع ذلك فوجوده في الرواية مما يقربها لفن المضحكات

ومن روايات شكسبير المشهورة ايضاً هاملت وهو اسم ولد للملك من ملوك الدانمارك في قديم الزمان . وخلاصة الرواية ان ام هاملت انفقت مع عمه وهو اخ الملك وكان شاباً حسن المنظر فسقى الملك سماً وتولى مكانه وتزوج ام هاملت فانتقم هاملت من عمه وقتله . وكان لها ممت معشوقة بدیعة الحسن تالهي عنها بتدبير الحيل في طلب الانتقام فماتت كمداً . وابلغ ما في الرواية حديث هاملت مع حفار القبور وهم يحفرون قبر معشوقته ويشربون من القرعة ويتنادمون . فالتكات الفلسفية التي يفوه بها حفار القبور مما يقرب الرواية لفن المضحكات مع انها من ابكى المبكيات . وقتل الملك على الوجه المتقدم له امثال في التاريخ . منها قتل ام خالد بن يزيد لمروان بن الحكم في الدولة الاموية . ولم تزل الممثلة الشهيرة ساره برنار تمثل على المراسح دور هاملت بطل هذه الرواية وتلبس لباس الرجال كما تمثل دور النسير وهو ابن نابوليون الاول وحفيد امبراطور النمسا في رواية (ليكلون) التي نظمها شاعر العصر ادمون رويستيان . ومن روايات شكسبير ايضاً ما قبت وهو قائد لجيوش دونقان ملك ايقوسيا من بلاد الانكليز . قتل سيده وتغلب على ملكه وحكم من سنة ١٠٤٩ الى سنة ١٠٥٧ م . فصور الشاعر قصته في تلك الرواية وخلاصة الكلام فيها : ان ما قبت اجناز يوماً مع رفيق له بمفازة مقفرة فمرّاً بثلاث عجائز ساحرات كلهن جنيات

فقات احدهن : - السلام عليك يا ما قبت يا امير غلاميس

وقالت الثانية : - السلام عليك يا ما قبت يا امير قاودور

وقالت الثالثة : - السلام عليك يا ما قبت يا من سيكون ملكاً على ايقوسيا

فقال رفيقه بانقو : - اعوذ بالله منكن اي النسوة اثنتان ؟ امن الانس ام من الجان ؟

تفاءلن بكل خير لرفيقي ولم تنبئنني بشيء

فقات كبراهن : - اما انت فخبرك باحسن مما اخبرنا به رفيقك لان عاقبته مشؤمة

ويموت بلا ولد يخلفه في الملك . واما انسلك فسيملك على ايقوسيا ويمتد الملك فيهم .

فلن ذلك واخففين كلمح البصر . وكان الامر كما تنبأ به

ففي يوم من الايام نزل الملك دونقان مع بعض خواصه عند ما قبت فبالغ لهم في

الضيافة والاكرام وفرش للملك في مخدع ولقنائه في الغرفة المجاورة وكانت زوجة ماقت حريصة على تحقيق ما اخبرت به الساحرات فخرضت زوجها على قتل ضيفه وسيده . فدخل في ظلام الليل الحالك واخذ خنجرًا لاحد القراء وهم غارقون في النوم وغطسه في صدر الملك . فلما قتله اخذته الرهبة واستولى عليه الخوف والدهشة من هذا الجرم وغاب عن رشده . فتداركت زوجته الامر ودخلت المخدع وغرفت بيدها من دم المقتول ولطخت وجوه قرائه وايديهم لاثمهم بايقاع الجرم . فتمت الحيلة وجلس ماقت وزوجته على سرير الملك ولكن لم يهدأ روع ليدي ماقت ولا استراح ضميرها . فصور الشاعر ندامتها في الفصل الاخير من روايته بابدع اسلوب وابلغ تعبير . واخرجها على المسرح حاملة مشعلًا وهي لا ترى في عينيها الا الظلام وتفرك يديها كأنها لم تنق من لطخ الدماء ولا ذهبت الرائحة منها مع ما تطيبت به من طيب جزيرة العرب وعطرها المشهور وتحسب زوجها معها فنقول له : اغسل يديك والبس ثوب النوم وقل من اعفرار لونك الخ . . . ومن روايات شكسبير ايضًا اوتيليو بين فيها غيرة الزواج وشدته على زوجته . وترجمها نظماً للفرنساوية الفرد دوفينية وله غير ذلك من الروايات

وجل شكسبير في تصوير اخلاق الرجال وتوصيفهم وبيان المزايا الخاصة بكل فرد من افرادهم . فسلك في الادب طريقة مستحدثة حاد فيها عن لهجة القدماء المؤسسة على اساليب اليونان والرومان ونبد وراء ظهره قواعد الطريقة المدرسية ولم يلتفت في الرواية الى وحدة الزمان والمكان ولا تصنع في الانشاء ولا تقصد فيه ايراد البديع من الكلام ولا تنافت على التشايب والاستعارات . بل اخذ ما يلهمه اياه الوجدان ويمليه عليه الضمير ويصور الاحساسات الباطنية والآداب الاجتماعية بلهجة مألوقة للعموم آخذة بمجامع القلوب ينقلب فيها من ظور الحلم والجود والكرم الى طور الغضب والبطش والاستبداد وبين عوامل الحب والبغض والياس والقنوط والحسد والطمع وحب الانتقام والتكبر والتجبر والتفاخر والتكاثر الى غير ذلك مما هو مغروس في طينة الانسان من الاخلاق والطباع ويظهر تأثيرها على النفس بعبارات سلسة جليلة ليس فيها تصنع ولا تعمل

ثم نبغ في الانكليز الشاعر ميلتون ١٦٠٨ - ١٦٧٤ م وكان كاتبًا لقرومويل الشهير فلما مات وانقرضت دولته غدر الزمان بالشاعر وعمي بصره وذهب ماله فاهل على زوجته وبنتيه كتاب « الجنة الضائعة » وهو في الحماسة المسيحية نظمه سنة ١٦٥٨ بشعر لا قافية له ورتبه على اثني عشر غناء فجاء من احسن ابنية الشعر الانكليزي ومن ابدع ما افقه

شعراء الامم الاوروبية بعد كتاب (المشحكة الالهية) المشابه لرسالة الغفران
فتمتنت اللغة الانكليزية واتسعت دائرة الادب والتخييلات الشعرية فيها ومال
ادباؤها لقراءة الاشعار القومية الدارجة التي نظمها في القرون الوسطى التروبادور
والزوفير وهم من شعراء الرابطة المعاصرين لعرب الاندلس واوجدوا للشعر شكلا جديدا
واسلوبا مبتكرا : ونبع فيهم مثل شلي (١٧٩٢ - ١٨٢٣ م) وزوجنه والورد بايرون
وكان ذاتنس عال وتخييل واسع فنظم القصائد المعروفة بالشرقيات وتشيع فيها لليونات
تشيع العجم للسادات وتقاني في حبهم ولم يزل غرام العشق يلعب برأسه اثناء حرب المورة
الى ان حطه العشق والهيام من اعلى قصور لوندريه الى اسفل اكواخ ميسولونكي وهي قرية
على ساحل خليج قورنت الفاصل بين شبه جزيرة المورة وبقية بلاد اليونان . وبسبب
وخامة تلك القرية وعدم نظافتها كان هواؤها فاسدا فاصابت الحمى الشاعر الانكليزي
وعجلت بروحه الى الآخرة ونقلت جثته الى انكلترا وقيم له في ميسولونكي تمثال يشاهده
السائح في تلك البقاع . فالورد بايرون هو مؤسس الطريقة الرومانية باللغة الانكليزية
وله في الشعر الدراماتيقي رواية ماتفرد نظمها في ايطاليا على نسق رواية فوست و ذكر
فيها السحر والارواح وخوارق الطبيعة وله ايضا رواية دون جيان نظمها على اسلوب
مبتكر . وكلتا الروايتين تمثلان الآن على المراسع الباريزية

ومن مشاهير ادباء الانكليز والترسقوت (١٧٧١ - ١٨٣٢) كتب بالانكليزية
اكثر من سبعين قصة تاريخية بين سني ٨١٤ او ١٨٣٢ كلها في غاية التدقيق عول عليها
المؤرخون ومنهم ميشله المؤرخ الشهير . لان صاحب القصص له في الوقائع التاريخية
نظر دقيق وشروح وافية فلما يتيسر للمؤرخ الاحاطة بها ونسج على منوال والترسقوت في
القصص التاريخية ولیم غودوين . ثم ظهر في عالم التحرير المؤلف النحرير والديپلومات
الشهير بنيامين الاسرائيلي صاحب القصص السياسية وهو اشتهر في التاريخ باسم اللورد
بيونسفيلد ونبع في فنون الادب والسياسة وساح سنة ١٨٣٩ في ايطاليا واليونان وبلاد
الارناؤوط وبر الاناضول وسوريا ومصر والحشة ونشر كتب سياحاته على طرز قصصي
وبين فيها آرائه السياسية وعرب المقتطف بتصرف قصة سياحته في سورية وفلسطين
وله قصة اخرى عنوانها اسكندر بك الارناؤوط . فصار هذا الاسرائيلي رئيسا لوزارة
المحافظين وكان مخالفا في السياسة لغلادستون رئيس حزب الاحرار . فثبت بيمونسفيلد
امام مطامع روسيا وعارض في اجراء معاهدة اياستافانوس سنة ١٨٧٧ ولكنه طمع في

الاجرة على هذه الخدمة وبيع اكثر من اللازم في تجارته وتوفي سنة ١٨٨١
 فيفهم مما تقدم ان اول واضح لاساليب الطريقة الرومانية ولهم شكسبير . ولكن
 اول ناسج على منوال هذه الطريقة ومظهر لمزاياها هم شعراء الالمان . وجميعهم من انكليز
 المان وفرنساويين اقتبسوا افانين الادب من الاسبانيين والاطليان المخالطين للعرب في
 القرون الوسطى

٢١ — الطريقة الرومانية عند الالمان والفرنساويين

اما الالمان فأقدم تأليف أدبي لهم أغاني هيلدبراند نظمت في القرن التاسع للميلاد
 بلسان الالمان كما نظمت أغاني رولان بلسان رومان . وفي القرن الثالث عشر جمع ديوان
 نيلونجن كما جمعت قصة عنتر وذكر فيه الحروب التي حدثت بين قبائل نيلونجن وبين
 اتيلا الذي هجم عليهم من الشرق وأبادهم . فهذا الديوان هو كتاب الحماسة الالمانية .
 ثم حدث الانقلاب الديني وظهر لوتر مؤسس أحكام الديانة البروتستانتية وترجم
 الالمانية الكتب المقدسة فانتسعت بذلك اللغة وتمهذب نوعاً ما وظهر نفر من الكتاب
 والشعراء والعلماء ومع ذلك استمر الالمان للقرن الثامن عشر للميلاد محرومين من
 فنون الادب المعتمدة عند الادباء . وكان الامراء والاعيان في المانيا مكين على تحصيل
 الادب الفرنسي وعلى حفظ الاشعار الفرنسية والتمثل بها والتكلم بالفرنساوية في
 نوادي سمرهم ومجتمعاتهم وضيافاتهم تشبهاً بملوك بروسيا وبما في القصر الملوك ببرلين
 اذ الناس على دين ملوكهم . وكان لفريدريك الثاني ملك بروسيا اعجاب شديد بالشاعر
 الحكيم فواتر الفرنسي فقر به اليه وأحله في قصره محلاً رفيعاً . والحاصل كانت بضاعة
 الادب الفرنسي رائجة عند الالمانين كراوجها عند الروس . وكرواجها أيضاً بعد
 حرب القرم في الاستانة العلية ومصر القاهرة . حضرت يوماً في مدرسة العلوم السياسية
 بباريس امتحان طالب تركي استانبولي أجاب جواباً مقبولاً عن أكثر الاسئلة التي
 القيت عليه بما يتعلق بأحوال فرانس وشؤونها الداخلية اللازم معرفتها لانبائها . فلما
 انتبه له المعلم وسأله عن البوسنة والهرسك وعن أحوال مسلميها وجده لا يعرف
 شيئاً عنهما ولا يدري ان كان فيهما مسلمون ام لا . ورأيت في باريس تلميذاً مصرياً
 يحسن التكلم والكتابة بالفرنساوية ويتكلم العربية ولا يكتبها وله والده تركية تحرره
 المكاتب باللغة العثمانية ولم يكن هو يعرف اللغة العثمانية لا تكلماً ولا كتابة سوى بعض

عبارات متعارفة ربما كانت والدته تعرف قدر ذلك من العربية فيتيسر لهما التفاهم والتكالم باللغة العربية التركية واما المخبرة التحريرية فلم يتمكننا منها الا بواسطة الترجمان والكتاب مع ان كليهما ليسا باميين بل هما على جانب من العلم والادب . فالانسانك باللغة الاجنبية ادى الى ان الولد اصبح لا يعرف لغة امه كما يجب معرفتها ادبياً وطبيعياً . لان لغة الأم هي اللغة الطبيعية التي يسميها الفرنسيون (لانغ ماترنيل) ويسميها الاتراك (لسان مادر زاده) ومادر هي الام بالفارسية

وهكذا كانت الحال في المانيا بسبب تهاقهم على ادب اللغة الفرنسية في الثلث الاخير من القرن الثامن عشر اي ما بين سني ١٧٧٠ - ١٧٨٠ م جاء ادباء الالمان بطرز جديد من الادب كان له رواج على مراسع اللعب واقبل الناس عليه اقبالاً عظيماً . مع ان الطرز الجديد الذي جاؤا به كان عارياً عن تلك الصور والاساليب البديعة التي في مؤلفات اهل الطريقة المدرسية وخالياً عن ذاك التصنع او التعمل الذي كانوا يتكلفون له ومجرداً عن تلك المحاسن التي كانوا يؤلفونها تاليفاً . وانما كان كلام الادباء الالمانيين في هذا الطرز الجديد صادراً عن تاثر وتهيج وانفعال في النفس . وعن احساس في القلب . فنفع هذا الانفعال والاحساس الروح في كلامهم وصيره كلاماً حياً تألفه ارواح المستمعين وتحن اليه . ولم يقصد ادباء الالمان فيما افوه الامتياز بالفضل والعلم بين الخواص وانما كانت غايتهم افهام كلامهم لعوام الناس ولجميع الاصناف من اولاد البلد الذين يقال لهم (بورجوا) . فمن اجل هذا عدلوا عن الاخذ بعالي الطبقة من الانشاء المصنع واستعملوا اللهجة المألوفة بين قومهم وابناء بلدهم وجعلوا اهتمامهم في نفخ روح الحياة في كلامهم وادخلوا فيه كل ما يحدث انفعالاً في النفس وتهيجاً في العواطف بغير تهاقت على البديع من الالفاظ ولا على رعاية القواعد وصوروا في كلامهم الغرائب والعجائب التي تشوق الاسماع لاستطلاع حقائقها ولا تطمئن القلوب الا بعد الوصول لنهايتها . فان الاذن تعشق بطبعها الاخبار ولذا نرى عوامنا في كل قطر وبلد يدورون وراء القصص (الحكواتي) من قهوة الى اخرى ويتلذذون بسماع ما يتلوه عليهم من اخبار عنثرة ابن شداد والوزير ابى لبلى المهلهل والزناي خليفة وعلي الزبيق عابق زمانه وقصة الملك سيف والملك زاد بخت بن شهرمان وجميع ما ورد في الف ليلة وليلة من الحكايات . واذا بات بطل الرواية في ضيق وكرب لا يهدأ بالهم ولا تنام اعينهم الا بعد تمام الخبر وفهم ما جرى له

وكان أدباء الالمان اذا الفوا رواية فاجعة أخذوا موضوعها مما يرونه في قومهم ويشاهدونه في بلادهم واذا بحثوا عن الوقائع التاريخية اختاروا مباحثهم من تواريخ القرون الوسطى لا سيما من القصص واللكايات الدارحة على السنة الامم الالمانية والجرمانية ترجيحاً لها على تواريخ القرون الاولى وعلى قصص اليونان والرومان . كما فعل كوته ١٧٤٩ — ١٨٣٣ م . شيخ أدباء الالمان فانه اختار فوست بطلا لروايته الشهيرة بهذا الاسم . وتداول اسم فوست على السنة العامة في المانيا وفي انكلترة قبل تأليف هذه الرواية الالمانية واشهرت سبرته بين الناس بأنه من السحرة الذين باعوا الدنيا بالآخرة واشتروا الضلالة بالهدى فاربحت تجارتهم ولا كانوا مؤمنين واختاروا بطلاً لرواية أخرى « اكمون » وهو أمير في البحر هولاندي الاصل اشتهر في تاريخ الالمان بخدمته لشارلكن وانتصاره على الفرنسيين وعلى ملكهم فرانسوا الاول المستنجد بالسلطان سليمان القانوني . ومن بديع ما ألفه أيضاً الشاعر كوته قصة وارتر ثم ديوان الشرقيات (ديفان اورينتال) وهو مجموع أشعار نظمها على أسلوب غريب قلدها ديوان الحافظ الشيرازي احد مشاهير شعراء المعجم المتوفى سنة ٧٩٤ هـ او ٧٩١ هجرية وكان الحافظ ممن اجتمع بتمورلنك حينما ضبط شيراز وجري بينهما لطائف مشهورة . وقد ترجم ديوان الحافظ للغات الاوروبية كما ترجمت مؤلفات الاكابر من شعراء الفرس مثل الفردوسي صاحب الشهنامه المتقدم ذكرها ومثل الشيخ مصالح الدين سعدي صاحب الكلستان والبستان وترجمه الى الفرنسية الموسيو باربيه دومينار مدير مدرسة اللسنة الشرقية بباريس . والكلستان مترجم الى العربية والتركية ويدرس في عموم المكاتب العثمانية وكان الصليبيون قد أسروا مؤلفه وحبسوه في طرابلس الشام وشغلوه في بناء الابراج المحيطة بها من جهة البحر . فرق له احد الاغنياء من أعيان حلب واقتماء بمال وخلصه من الاسر وكانت وفاته سنة ٦٩١ هـ . فافرح زماننا يحترمون سعدي قدر ما احتقره اسلافهم وذكره فيكتور هوغو في مؤلفاته ونقل عنه . ومن مشاهير أدباء الالمان شيلر (١٧٥٩ — ١٨٠٥ م) وكان معاصراً لكوته ورفيقاً له فاتخذ ولیم تل بطلاً لروايته المشهورة بهذا الاسم . وكان ولیم تل المذكور رئيساً للعصبة التي خرجت في بلاد السويس على حكامها من النمساويين وحررت البلاد من قيد اسارتهم سنة ١٣٠٧ م . والمذكور من خبره في التاريخ ان الدوق اي والي بلاد السويس المعين من قبل امبراطور الالمان نصب ذات يوم عموداً في ساحة المدينة ورسم في رأسه تاج الدوقية وأمر الناس بالخضوع امامه . فرفض ولیم

تل الانقياد لهذا الامر الذي فيه التحقير والاذلال لنوع الانسان مع ما اختصه الله به من الكرامة وورد في القرآن الشريف « ولقد كرّمنا بني آدم » (١) • وكان ولیم تل من أشد الابطال بأساً وأمهرهم رمياً بالنبل فغضب عليه الوالي وأحضره بين يديه وحكم عليه بوضع تفاحة على رأس ولده وفلذة كبده ورميها بالقوس والنشاب • ففعل ذلك وقلبه يتميز من الغيظ وأصاب الهدف بعد ان كان الخطاء أقرب اليه من الصواب • فصور الشاعر هذه القصة التاريخية وبين فيها عوامل الاستبداد وعدم صبر النفس الابية على الظلم والجور والاستعباد وكان شيلر يلقب بشاعر النساء والشبان لتأثير أقواله فيهم أكثر من تأثيرها في المتأدبين من الرجال المائلين الى التعامل والتصنع في الكلام والى الانشاء العالي الطبقة • لان كلامه كان سهلاً بسيطاً خالياً مما في الطريقة المدرسية من أصول الصك والسبك ومن أنواع البديع والاستعارات وفيه كثير من الالفاظ العامية والتراكيب المتداولة ولكنه كان على السامع أشد تأثيراً واخذاً بمجامع القلوب

فبعد ان كان الالمان في الادب عيالاً على الفرنسيين وليس عندهم من المؤلفات الادبية الا ما هو ترجمة او تقليد لما حرر بالفرنساوية على نهج الطريقة المدرسية صاروا أئمة في الادب يقتدي بهم وينسج على منوالهم • واشتهرت الطريقة التي سلكها كوته وشيلر وليستغ ومن اقتفى أثرهم بالطريقة الرومانية نسبة للغة رومان — وهي اللاتينية الدارجة التي جاء بها جنود الرومان وموظفونهم الى بلاد الغولوا والسات اي لفرنسا فتحررت فيها وامتزجت بالسان الفرانك وانقلبت الى اللغة الفرنسية الحالية • فكلمة رومان كانت تطلق في القرون الوسطى على ما دون بالسان رومان من في المنظوم والمثثور • وذلك مثل يمين ستراسبورغ وهو أقدم الابنية في لسان رومان ومثل رومان رولان ويقال لها أيضاً أغاني رولان ورومان ارثور ورومان المائدة المستدرة ورومان الثعلب ورومان السيد وكثير غير ذلك فكانت المحررات الرومانية اي المدونة بلغة رومان تعتبر من التأليف الجاهلية بالنسبة للمحررات اللاتينية وهي ما حرر باللغة اللاتينية من التواريخ المقدسة وسير الصالحين والقديسين والصلوات الدينية • فاللسان اللاتيني كان اذذاك لسان المدارس والكنائس والمعول عاياه في العلم والدين وكان في سبكه تصنع وتعمل ومراعاة لقواعد

(١) ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضااناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً • آية : (٧٠) سورة (١٧)

الغراما طبعي والعروض وبقية علوم الآلات المدرسية • ويباغون علوم الآلات في العربية الى اثني عشر علماً كما لا يخفى • فاعة رومان لم يكن فيها شيء من ذلك بل كانت على فطرتها الطبيعية وليس في سبك عباراتها أدنى تصنع ولا تهذيب • فلما اختار أدباء الالمان مواضيع رواياتهم من رومان القرون الوسطى ورجحوه على مؤلفات اللاتين واليونان سميت طريق أدبهم بالطريقة الرومانية • وأطلقت كلمة (رومانتيك) الفرنسية على الادب المستحدث تسمية له باسم اجنبي كما أطلقت كلمة (فرانك) الجرمانية على قبائل الغولوا والسلت وقيل لهم فرنساويون

فطريقة رومانتيك المنسوبة لفيكتور هوغو تولدت في المانيا واشتهرت برقايتها للطريقة المدرسية وبميلها لاظهار قريحة القرون الوسطى وتصوير أخلاق أهلها وعوائدهم وحماسة فرسانها وصلابتهم في الدين وتعصبهم لامذهب وتهورهم في المسائل ومبالغتهم في الاخبار وتصديقهم بالخرافات والخزعبلات • وأراد أهل الطريقة الرومانية الفوز على أهل الطريقة المدرسية — لا بانتقاء الالفاظ وسبك العبارات وانسجام المعاني ومراعاة القواعد — بل بالاثيان بكل ما يحدث انفعالاً في النفس ويفتح مجالاً للتصور والخيال • ولذا عمدوا الى القصص الدارجة على الاسن والمنقولة عن الاسلاف والجدود ووضعوها في قالب شعري والفوا بها رواياتهم وأهلوا أساطير القرون الاولى من الاسرائيليات والخرافات اليونانية والرومانية وجاء الفيلسوف الالمانى هكل وفسر تفسيراً فلسفياً حقيقة الطريقة الرومانية وهو يبحث في الصور المختلفة التي تغلب فيها العقل البشري فوجد فيها ثلاث طرق في صناعة الادب منذ نشأته الاولى الى زمانه وهي :

(١) الطريقة الرمزية (سيمبوليك)

(٢) الطريقة المدرسية

(٣) الطريقة الرومانية كما سنذكره

ويظهر الفرق بين الطريقة المدرسية والطريقة الرومانية لكل مدقق حضر تمثيل رواية مؤلفة على نهج الطريقة المدرسية مثل مؤلفات راسين ومنها رواية (اندروماق) اليونانية و (استير) و (اتالي) الاسرائيليتين ومثل مؤلفات قورنيل

ومنها (هوراس) وهي رواية الاخوة الثلاثة الرومانيين ثم حضر في مراسع الاستانة وأزمير او مراسع مصر وأوربا تمثيل رواية فوست مثلاً . فأول ما يشاهد عند رفع الستار شيخ عليه الهبة والوقار جالس على كرسي في غرفة المطامة وامامه مائدة تراكت فوقها الكتب والدفاتر والاقلام والمخابر وهو يفكر فيما يكون اليه المرجع والمآب ويقاب على ضوء السراج اوراق الكتاب الذي خط فيه جابر ومسلمة علوم السحر والكيمياء ويتلهف على أيام الشباب وزمن النصابي ويقول :

إذا كان علم الناس ليس بنافع ولا دافع فالحسر للعالماء

وبعد ان يستولي اليأس على هذا الشيخ الغاني ينفخ في رأسه الوسوس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس ويحرضه على دعوة الشيطان اليه وتلاوة العزائم عليه فبأسرار التلاوات وخواص الطلسمات يظهر صاحب الاسم والعزيمة المتوسل بها وهو خادم من الجنة ويعلمه ما انزل على الملكين بابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا انما نحن فتنة فلا تكفر وهكذا يقول الخادم للشيخ فيبيع الآخرة بالدنيا ويشترى بالضلالة بالهدى ويتلم منه ما يعيد الشباب والغناء ولعل ذلك بواسطة الاكسبر الذي من خواصه اعادة الشباب وقلب المعادن الى الذهب على زعم المتمدنين فينهمك الشيخ فوست في اللذات ويفرق في الهناء والمسرات ويعشق بنتاً يقال لها مارغريت فيراودها عن نفسها ويفرق بسحره بينها وبين أمها ويستهوئها بالجواهر واللاكي ويطغىها الشيطان فتستحق لعنة الله والملائكة والناس اجمعين . فيفتاظ اخو مارغريت من عهر اخذه ويقف لعاشقها بالمرصاد وبارزه بالسيف فيقتل بوخزة خفية من ذاك الخادم الجني المرافق لفوست . فتستحي مارغريت من هذه الفضائح ويذهب الرشد منها فتقتل الولد الذي حملت به من فوست ويأخذها حاكم البلد بما جنت يداها ويلقيها في السجن فيأتي عاشقها لتهرب بها وهذه أشد ساعة على مارغريت حيث يتنازع قلبها عوامل الحب من جهة وعوامل الندامة من أخرى فلا تجد لها ملجأ غير رحمة الله التي سمعت كل شيء فتحول وجهها عن عاشقها وتثوب الى الله توبة خالصة . واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام

عليكم كتب على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفورٌ رحيم^(١). فيغفر الله لها ما تقدم من الذنب وما تأخر ويقبضها اليه فتخرم مية وتذهب نفسها الناطقة الخالدة الى عالم الارواح على شكل الحمامة التي وصفها ابن سينا بقوله

هبطت اليه من المحل الارفع ورقاء ذات تمزز وتمنع وتنشق في آخر الليل سماء المرسح وتظهر مارغريت بأبهى الحلى والحلل في أعلى عابدين بجانب اخواتها تحف بهن الملائكة المربون. وفوست ينظر اليها والمبرات تسيل من عينيه. واخلافوا في فوست فقالت طائفة بأنه من الهالكين ومقره في الدرك الاسفل من النار. وقالت طائفة أخرى لابل استشهد في الحب وتاب الى الله فتاب الله عليه والله خير التوابين. والاذان يأتيانها منكم وآذوها فان تابا وأصلحا فأعرضوا عنها ان الله كان تواباً رحيماً. اما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً^(٢)

ويرى المتفرج على هذه الرواية افمال السحر والسحارات المكارات اللواتي يطبخن المواد السحرية في القدر ويصدينها بين المفارق ليسحرن المارين في الطرق ويرى أيضاً أعمال الشيطان الرجيم وغوايته لمن يتبعه من الانس ومقدرته على خرق العوائد واظهار العجائب وحكمه في هذه الدنيا الدنية الفاسدة وكيفية استعاذة النصاري منه بالصليب ولذا جعل أهل القرون الوسطى قبضات سيوفهم على شكل الصليب ليعوذوا بها من شر الشيطان الرجيم. وبهذا يكون السيف قاطعاً بقبضته في الروحانيات وبجده في الماديات

ولما ذهب نابليون الاول بعساكره الى بروسيا اجتمع في برلين بالشاء كوته مؤلف رواية فوست المذكورة وحادثه طويلاً وعجب به واحسن عليه نيدشان لافتخار فانتجته نحو مؤلفاته افكار الادباء من الفرنسيين كما اتجهت قبلاً افكار ادباء الالمان نحو مؤلفات فولتير حينما كان في سراي برلين من المقرين وكانت اساليب

الطريقة الرومانية دخلت فرنسا على عهد نابوليون الاول بواسطة شاتوبريان وما دام دوستايل

اما الاول فهو الامام الذي اقنطى به في الادب فيكتور هوغو وقال : « أما ان اكون شاتوبريان اولاشي » . واسمه فرانسوار بنه فيقونت دوشاتوبريان نسبة لشاتوبريان اي لقصر بريان المشيد على نهر لوار بالقرب من نانت . وحيث كان من اشرف المائلات ذهب ايام الانقلاب الكبير الى اميركا وساح بين اهاليها المتوحشين وعاد منها لانكائرا ثم لفرانسا ونشر قصة (انلا) وذكر فيها ما شاهده في سياحته من عجائب الامم المتوحشة . ثم نشر قصة (رينه) وقص فيها اخبار نفسه وبين افكاره وانفعالاته بسبب ما كشف له من الحقائق المزعجة . واما تاز بين الكتاب بروني الانشاء وكثرة القصص والاحساسات وبشدة الهيام وفصاحة الكلام فراجت بضاعته في الادب ونشر حينئذ (حكمة الديانة المسيحية) واقبل على تدقيق هذا الدين وخرج لمشاهدة الاماكن التي ظهر فيها والبلاد التي انتشر بين اهاليها فساد في اقطار فلسطين وسوريا ومصر وبر الاناضول ونشر سنة ١٨٠٩ كتاب الشهداء وبين فيه كيفية ظهور الدين المسيحي على الدين الوثني ونشر سنة ١٨١١ (دليل السياحة من باريس الى القدس) وعرف الفرنسيون بشؤون القرون الوسطى بعد ان كان ادباؤهم مشغوفين بتعريف القرون الاولى وبتقليد ادباء اليونان والرومان . وكانت جريدة الديبا المشهورة بحسن الانشاء وجودة التحرير حديثة الظهور فاقبل على التحرير فيها وبرع في قوة التصوير والوصف والتلوين وكان لكلامه تأثير على النفوس فصار لمؤلفاته دخل كبير في ظهور اساليب الطريقة الرومانية . ودخل شاتوبريان الوزارة الخارجية وتعين سفيراً ثم ناظراً للخارجية

اما المادام دوستايل فهي بنت الوزير نيكر الشهير . اشتغلت بالعلوم والمعارف كما هي عادة سيدات النساء في ذلك العصر ونبغت في فنون الادب واصبحت عالمة فاضلة يشار اليها بالبنان . فحررت سنة ١٨١٠ م كتاباً مفيداً عن المانيا . وكتبت عن الادب باعتبار ما له من العلائق بتشكيل الهيئة الاجتماعية . فدرست درساً فلسفياً

ادب اليونان واللاتين . وبينت مدخل الدين المسيحي في تقريب عقول أهل الشمال من عقول أهل الجنوب . وذكرت الخواص المميزة لكل من الادب الطلياني والاسباني والانكليزي والالماني . وما لكل منهما من العلائق بالفكر السياسي والادبي . وشرحت تأثير الدين والاخلاق والشرائع على فنون الادب . وأستنتجت من تدقيقاتها العميقة ان الفكر البشري تابع لناموس الارتقاء مع المعاني الاخلاقية والفلسفية والعلمية والسياسية الخ ولكنه لم يتبع ناموس هذا الارتقاء في التخيلات الشعرية ولا في التصورات الخيالية . فعندها ان الشاعر كوميروس مثلاً لا يذهب رونق كلامه وطلاوته ولا في عصر من العصور ولا يسمح به الدهر مرة اخرى

ثم ظهر لامارتين الشاعر السياسي الشهير ونظم ديوان التفكرات الشعرية فكان اول بناء من ابنية الشعر الجديد الموسيقي (ايريك) وخالف فيه اساليب من تقدمه كما خالف المتنبي اساليب الشعراء الجاهلية . واشتمل ديوان لامارتين على تمجيد الله الذي شرف عن التمجيد وعلى استغراقات في الحب وتجليات لطيفة ووصف مظاهر الكون وعالم الطبيعة وصفاً بديعاً . ومن أحسن ما نظمه قصيدة (البحيرة) التي ترجمها نظماً للسان العثماني سعد الله باشا سفير الدولة العلية في فيانا وباريس سابقاً . وفهمت بان احمد بك شوقي شاعر الحضرة الخديوية ترجم القصيدة المذكورة للعربية . وساح لامارتين في الشرق وأحسن عليه ساكن الجنان السلطان عبد المجيد خان بمزرعة (جفالك) في ولاية ازمير فكث فيها وفي ربي لبنان وحرر سياحته الشرقية وتاريخ الدولة العثمانية في ثمانية مجلدات ونظم ديوان الالحان الشعرية والدينية وغيرها

٢٢ — ظهور فيكتور هوغو

فجميع من ذكرناهم من الشعراء الفرنسيين وغير الفرنسيين تقدموا على فيكتور هوغو او عاصروه ومهدوا له طريق الادب الجديد . وكانت النفوس في ابتداء القرن التاسع عشر تائفة لرؤية أسلوب مستحدث في النظم والنثر والحصول

انقلاب في الادب كما حصل انقلاب في السياسة . لان المنشئة الجديدة من الخواص كانوا نافرين من قيود الطريقة المدرسية . وجمهور العوام كانوا متألمين من استبداد أصحاب الانقلاب الكبير باسم الحرية . فان رؤساء هذا الانقلاب لم يكتفوا بتغيير شكل الحكومة بل هدموا أساس الدين وسببوا حدوث الفوضى في الامة . أي انهم افراطوا في جانب الدين والسياسة كما فرط قبلهم ذوو التيجان من الملوك المستبدين . فكان الجمهور يترقب ظهور امام في الادب يعيد لهم الرجاء والامل بالله . والشعراء يترقبون ظهور هذا الامام ليخلص فن الادب من القيود الذي قيده بها بوالو في كتابه المسمى (آربوتيك) أي صناعة الشعر . فكانوا يتمنون كسر هذه القيود واعطاء الحرية التامة للفكر كما كسرت سلاسل الاستبداد وهدم بيت المظالم الا وهو حبس الباستيلية الشهير واطلق سراح المحبوسين فيه ظلماً وعدواناً

فظهر فيكتور هوغو وبرع في اللغة الفرنسية وفي طرق الافادة بها . وفضلاً عن معرفته بالفردات والتراكيب اللغوية صار له خبرة بما للكلمات من القيمة الموسيقية اي بالنعمة التي تحدثها كل كلمة والتأثير الذي يحصل من جمع نغمات الكلمات وألحانها . لان الكلمة عند خروجها من الفم لها نعمة مخصوصة ولحن بحسب مخارج الحروف . وتختلف المخارج باختلاف الالسنه ولذا ورد في الحديث الشريف (اقرؤا القرآن بلحون العرب)

وقد عبر أئمة البلاغة من العرب عن هذه القيمة الموسيقية (باجلاس الكلام) ولا يخفى ما في هذا التعبير من الخلاوة لان الصوت يرن بالالفاظ رنة الجرس . وصار ليفكتور هوغو أيضاً دهاية بعلم القوافي . فقوافيه عامرة بمختلفة ليس فيها ما هو مكرر او مبتذل بل جميعها ترد على غير ما ينتظره السامع . والخلاصة كان يعرف أي كلمة يلزم وضعها في أي بيت وأي بيت يقضي انقائؤه لاي موضوع . وساعده الحظ في السفر الى رياض الاندلس التي تتغذى القرائح بنفحات ازهارها وتقر العيون بحسن مناظرها . فصار ذهنه كأنه آلة بديعة تفي بوظيفة السينماتوغراف والفوتوغراف معا . فيصور ما يمر به من مشاهد الكون ويطبع ما يسمعه من حوادث الدهر ومرضه

على القراء والمستمعين بدون ان يضع منه خبراً او يغفل منظرًا . فصور في أشعاره
 الخائل وهي الشجر المجتمع الكشيف وكيفية تلاعب النسيم باوراقها والاغصان
 الملتفة وما ترسمه على بساط المرج الاخضر من الظل الظليل والجبال الراسية وما ينحدر
 عنها من الماء السلسبيل والانهار الجارية وما ينعكس على مراة سطحها من ضياء القمر
 وشعاع الشمس . ووصف صفير البابل وهديل الحمام وبغام الطباء وسجع اليام
 وذكر غدوها ورواحها ما بين الرياض الزهرة والاشجار المثمرة والجداول المنحدرة
 وصور غير ذلك أيضاً تصويراً حقيقياً باوضح بيان وافصح تعبير حتى يخال لمن يقرأ
 أشعاره انه ينظر الى لوح من اللوح المصورة بقلم الرسام وفرشاته . ويسمع خرير
 الماء وصوت مزمار الراعي وهو يتناقص كلما ابتعد مع محبوبته في جوف الغابة . وجمل
 الالفاظ تلبس المعاني كما تلبس الثوب على الجسم فجاءت الفاظه طبقاً على معانيه . وكان
 بمجرد نظره في المواد تتفجر المعاني من قريحته فيزنها بميزان الحس ويصوغ لها على
 قدرها قوالب من الالفاظ والتراكيب كاحسن صائغ للحلى واهر سباك للمعادن .
 فكانت طريقتة بادية الامر عبارة عن وصف الطبيعة ومناظرها البديعة ثم هجم على
 قواعد المتقدمين وأساليبهم هجمة الامة المستيقظة من غفلتها وكسر القيود التي قيدها
 بالوقول الشعراء ونبت قواعد الطريقة المدرسية وراء ظهره وأصلح عروض الشعر
 الفرنسي وغير تركيبه بمقاطع مختلفة وجوز تكميل معنى البيت بالبيت الذي بعده
 فوضع الجملة الواحدة في بيتين مما لم يجوز المتقدمون وجعل نظم الشعر موافقاً لاحتياجات
 الفكر . وفتح لآخوانه من ذوي النشأة الجديدة طريقة مستحدثة في الادب كانوا
 هائبين اقتحامها والولوج فيها

فأوجد فيكتور هوغو بذلك الطريقة الرومانية وحاد فيها عن استعارات
 الطريقة المدرسية وتشبيهاتها القديمة . ولم يتخذ كلام المتقدمين منوالاً لينسج عليه
 كما فعل اندره شينيه خاتمة أهل الطريقة المدرسية . بل اتخذ السوق الطبيعي
 والاحساس الباطني دليلاً له في النظم والنثر كما فعل المتنبي والمعري وأهل طريقة
 الخارجين عن أساليب العرب المتقدمين . فكما شعر فيكتور هوغو بشيء صور

بقلمه كما يحس به في قلبه بدون تهاافت منه على ترصيع الكلام بجواهر البديع وتدييحه
بجمال المجاز والتشبيه . فان أتى بشيء منها في كلامه عفواً بلا تصنع ولا تكلف
فمنهم . والا فهو لا يتم الا بالمعاني وبما يتخيله فيها من حقائق الشعر واذا أراد
تعيين الزمان مثلاً لم يتكلف ترتيب تلك الجمل المصنعة ولم يذكر حركات العقرب
على مينا الساعة ولا شبه ذلك بدوران الفلك ولا بمنازل الشمس بل قال بسوقه الطبيعي :
« غداً اليوم الخامس والعشرون من حزيران سنة الف وستائة وسبع
وخمسين . . . » كما ورد في مطلع رواية قرومويل وهي من الروايات الشخصية
المنظومة شمرًا . فهذا مقتضى البلاغة في تعيين الزمان . وهذه الشطرة المطابقة
الحال أبلغ من سواها . ومن المثال السابق الذي مثلنا به من كلام اندره شينيه .
فكان السالك نهج هذه الطريقة اذا عطش قال هات اسقني كما قال أبو نواس
ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرًا اذا أمكن الجهر
وأما السالك نهج الطريقة المدرسية فكان يجيد عن السوق الطبيعي ويصنع
كلامه ويقول « ألا مائة بارد نطفي به حرارة جوفنا » كما قال ذاك البارد المتنحي
فايضاحاً لحقيقة الطريقة الرومانية لانرى بدءاً من تلخيص القواعد التي أوردها بوالو
في صناعة الشعر ثم تلخيص القواعد التي ذكرها فيكتور هوكو في مقدمة رواية
كرمويل وعارض فيها بوالو وجميع المتسبين للطريقة المدرسية

٣٣ — طريقة بوالو

نظم الشاعر الفرنسي بوالو كتابه الموسوم بصناعة الشعر سنة ١٦٧٤ م وهي
أرجوزة طويلة محكمة البناء عالية النفس جامعة لقواعد الشعر وأنواعه . اعتنى
الشاعر في انشائها كثيراً وفكر فيها طويلاً لتكون قاعدة ونموذجاً في الشعر واقفياً
في نظمها وتأليفها اثر الشاعر اللاتيني هوراس وهو نزل عن أرسطوطاليس في كتابه
الموسوم بصناعة الشعر ولارسطوطاليس في الشعر كتاب آخر لخصه القاضي أبو الوليد
ابن رشد وطبع هذا التلخيص المستشرق فوستولازينو في مدينة فلورانس من

ايطاليا سنة ١٨٧٣ ولا نظن بوالواطلاع على قصيدة ابن رشيق ولا على مؤلفاته في هذا المبحث لان الافرنج لم يكن لهم الفة بأدب العرب في القرن السابع عشر وانما كانت عنايتهم باللغة العربية قبل ذلك حينما ترجموا كتب علماء الى اللاتينية ولم يعودوا لدرسها الا في اواخر القرن الثامن عشر حينما نبغ شيخ المستشرقين سيلفستر دوسامي في باريس وشرح مقامات الحريري وألف الكتب المعبرة . ولما ظهر ضيا باشا من متأخري الادباء العثمانيين وقرأ العربية ثم الفرنسية اقننى اثر بوالو ونظم بالتركية كتابه المعروف بالخرابات وانتقد فيه على كثير من شعراء الترك والفرس والعرب . فجاء كمال بك وانتقد عليه في رسالة سماها تخريب الخرابات وخطأه في كثير من مباحثه

فالفصل الاول من كتاب بوالو في صناعة الشعر يشتمل على تفصيل القواعد التي اجماعها في الكلام على الطريقة المدرسية . واكثر المؤلف في هذا الفصل من الحض على مراعاة قواعد النحو والصرف والمعاني وغير ذلك من علوم الآلات . وحذر كثيراً من الابتعاد عن سلامة الذوق ولو قدر شبر . وشرع في الفصل الثاني والثالث في تطبيق هذه القواعد العمومية على أفانين الشعر المختلفة وعرف كل فن منها على حدة وبلغت فنون الشعر عنده الى نحو أربعة عشر فناً . منها أنواع الغزل والتشبيب والرقصات والمطربات وما احنوى على ذل العشق ورقة الكلام والادوار المنسوجة على منوال شعراء الزروبادزر المعاصرين الاندلسيين . ومنها أنواع المدح وأنواع الهجاء والهزل والسخرية والذم المشابه المدح ومنها أنواع الرثاء ونحو ذلك . وتكلم أيضاً عن الروايات التمثيلية وهي (التراجيديا) أي الفاجعات و (الكوميديا) أي المضحكات وعرف كلاً منها وبين الشروط المقتضى مراعاتها في تأليف الرواية التمثيلية ولزوم وحدة الزمان والمكان والعمل . وعرف الشعر الموسيقي وهو النشيد والتلحين المسمى عندهم (ليريك) من كلمة ابروهي العود الذي يغنى عليه . وعرف أيضاً الشعر الحماسي المسمى عندهم (ايبوبه) ومعناها في الاصل الخطبة التي يتولها الخطيب

فالشعر الموسيقي يمتاز عن الشعر الحماسي بخاصته الشخصية أو الفردية أي المتفردة

في ذات صاحبها . وذلك أن الشاعر يرى الحسناء فيشعر بالحب و بأمل الوصال .
ويظهر له رقيب فيشعر ببغضه و بانقطاع رجائه من الوصال . وينال معروف الكريم
فيشعر بالشكر له . ويموت صديق له فيشعر بالنفجع عليه . فبسبب هذه المشاعر
تفيض نفس الشاعر بالفرح والفرح والمدح والهجاء والرتاء . ويشاهد أيضاً بدائع
المخلوقات وينظر في خلق الأرض والسموات فتفيض نفسه بالتسبيح والتهليل
والتقديس والترتيل . فكل واحد مما ذكر فن من أفانين الشعر الموسيقي . ويختلف
عروض كل منها وقوافيه باختلاف المشاعر التي يشعربها واختلاف الالهام الذي
يهبط عليه . ويمتريه من ذلك دهشة أو اندھال وحيرة وسرور وانشرح أو
انقباض وحزن فيظهر اثر ما ذكر في نظمه وشعره

وأما الشعر الحماسي فهو رواية الوقائع العجيبة التي يقوم بها الشجعان . فقولنا
رواية أي خبر يفصل هذا النوع من الشعر عن الشعر الموسيقي لانه نشيد وغناء
وعن الشعر الدراماتيقي أي الدرام لان أساسه العمل . ولا ياتبس بالتاريخ الذي
هو خبر ورواية أيضاً لان موضوع التاريخ الوقائع الصحيحة بلا اطرأء ولا غلو .
واما الشعر الحماسي فموضوعه الوقائع الملفقة المشتملة على غرائب الشجاعة ونوادير
الفروسية واشهر كتب الحماسة الابلأذة والاذيسة لهوميروس اليوناني . و (انبيد)
لفرجيل اللاتيني . والكوميذية الالهية لدانتي الطلياني . والجنة الضائعة للمنون
الانكليزي . وتخليص اورشليم لطاسو الطلياني وهانرياد لفولتر الفرنسي والحماسة
النابوليونية لفيككتور هوكو . وعند أهل الشرق ماهاهاراته وراماياته للهنود
والشهنامة للفرس وكتب الحماسة للعرب واشهرها كتاب الحماسة لابي تمام حبيب
ابن اوس الطائي وقد طبعه مع شرح أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي عليه
المستشرق الالماني فريتغ سنة ١٨٢٨ في مطبعة مدينة بونه . والجزء الاول من عكاظ
الادب هو في الحماسة الحميدية فهو (ايوبة) الحرب اليونانية الاخيرة كما حرر فيكتور
هوكو الايوبية النابوليونية . ومن أمعن النظر في الشعر العربي وجد اكثره من قبيل
الشعر الموسيقي أي النشيد والاغاني وهو الممتاز بخاصته الشخصية وبأظهار الحواس الباطنة

ووجد فيه أيضاً من الشعر الحماسي وهو الذي روى فيه أخبار الحروب وأطنب
 بشجاعة الشجعان . ووجد المقامات تشابه ما عند الافرنج من فن الكوميديا . غير
 ان صاحب المقامات جعل اهتمامه في انشاء الالفاظ وبلاغة التعبير ولم يلتفت
 كمصاحب الكوميديا لدرس اخلاق الرجال وبيان المزايا الخاصة بافراد القوم او الهيئة
 الاجتماعية . وكان الباحثون في ادب العرب لا يجدون فيه مثالا « للدرام » الآتي
 تهريفه فحاء عبد الرحيم افندي احمد وعرض على المستشرقين في المؤتمر الحادي
 عشر المنعقد سنة ١٨٩٧ م في باريس رسالة الغفران المعري وبين مشابهتها
 بالكوميديا الالهية ووعده بنشرها . وكان يوسف ضيا باشا الخالدي استنسخ رسالة
 الغفران المذكورة سنة ١٣٠٧ هـ من النسخة القديمة المحفوظة الآن بمكتبة
 الكوبريلي وهي تجاه نظارة المعارف وتربة السلطان محمود في الاستانة . وهم اذ ذاك
 بطبعها فحال دونه سفره لبلاد الاكراد واشتغاله السنين الطوال بترتيب القاموس
 الكردي وتدوين قواعد هذا اللسان الذي نبغ من ابنائه امثال صلاح الدين الايوبي
 صاحب الفتح القدسي . فاذا نشرت رسالة الغفران كما تطبع ترجمة الايلياد الآن
 في مطبعة الهلال تمكن قراء العربية من الاطلاع على فن جديد في ادب العرب غير
 الشعر الموسيقي والشعر الحماسي . والمأمول ممن ينشر رسالة الغفران ان يقابل بين
 النسخة المصرية والنسخة الاستانبولية لكيلا يقف ذهن المطالع كما حصل في المثال
 المنقول سابقاً من كتاب اعجاز القرآن للباقلاني بسبب وجود بياض في الاصل . ومن
 دقق النظر في لزوميات المعري عزف ما هو عليه هذا الشاعر الحكيم من علو الفكر
 واتساع القريحة ولم يشتبه في ان كتابه الموسوم بالايك والغصون لم يغادر صغيرة
 ولا كبيرة من فنون الشعر والادب الا أحصاها . وقد أطنب المؤرخون في كلامهم
 على كتاب الايك والغصون وزعموا انه في مائة مجلد . ولكن اذا نظرنا في قولهم ان
 اللزوميات في خمسة مجلدات ثم رأيناها مطبوعة في الهند في مجلد واحد وفي مصر في
 مجلدين حملنا ذلك على الظن بأن المائة مجلد من كتاب الايك والغصون هي بمثابة
 عشرين مجلداً من اللزوميات طبعة الهند او أربعين مجلداً طبعة مصر . وعلى كل فهو

من أعظم دوائر المعارف الادبية في لسان العرب . ولا يعجز عن الاتيان بثلاثها رهين المحبين . والايك هو الشجر الكثير الملف فكانه أشار بهذا الاسم الى ان الكتاب شامل لاصول الادب وفروعه

ثم ان بوالو بعد ما فرغ من بيان القواعد العمومية للشعر وبيان فنونه ولزوم اتباع الصدق والحقيقة فيه ذكر في الفصل الرابع من كتابه في صناعة الشعر ما ينبغي ان يتخلق به الشاعر من الاخلاق الحميدة وما يجب ان يحض عليه من الخير والمعروف . فاعترضوا عليه بذلك وقالوا بأن هذا الفصل من مباحث علم الاخلاق لا من مباحث الشعر والادب . ولاموه أيضاً على اعتباره الشعر في مجرد قوالب الالفاظ وعلى تحديده بالحدود والتعاريف والزام الشاعر بمراعاة هذه الحدود في كل فن من فنونه وعدم الخروج عنها . وقالوا بأن الشعر هو الهام من الله والطبيعة ونور يفيض على القرينة التي فيها استعداد طبيعي لقبوله ولا يمكن تعليم ذلك ولا تحديده بالحدود والتعاريف والصحيح ان بوالو يعترف بأن أساس الفكر اي المعاني الشعرية لا يمكن تعليمها بالقواعد ويقول بأنها هبة من الله واستعداد فطري و غريزي في قرينة الشاعر . وانما الذي يدخل عنده تحت القواعد المذكورة هو شكل التعبير اي قوالب الالفاظ التي تقاد بها تلك المعاني الشعرية

٣٤ — هوكو والادب الفرنسي

ولا ألف فيكتور هوكو رواية كرومويل التمثيلية سنة ١٨٢٧ وضع لها مقدمة بين فيها ما هو الاساس الذي انشأ عليه ابنية اوراقه وما هو أصل الشجرة التي اثمر فرعها فاكهة روايته . كما وضع المعري مقدمة لازوم ما لا يازم وافتتحها بقوله « كان من سوائف الاقضية اني أنشأت ابنية اوراق توخيت فيها صدق الكلمة ونزعتها عن الكذب والميظ » . ثم ذكر القواعد التي راعاها في تأليف هذا الكتاب وبين اللوازم التي تلزم القافية بدون أن يفتقر اليها حشو البيت وأتى لها بالامثال والشواهد المعتبرة من كلام الحكمة والموعظة الحسنة كما هو مفصل في بابه . فخلاصة مقدمة كرومويل :

ان الانسان منذ النشأة الاولى الى الزمان الحاضر نقلب باعتبار التمدن أي الحضارة والممران في ثلاث ادوار : (١) القرون الابتدائية . (٢) القرون القديمة (٣) القرون الاخيرة . وحيث كان الشعر سابقاً على الاجتماع الانسان وملازماً له فقد نقلب معه أيضاً في ثلاثة أشكال :

- (١) الشعر الموسيقي أي الغناء^(١) (ليريك)
- (٢) الشعر الحماسي أي الحماسة (ابيك)
- (٣) الشعر الدرامي أي الهائلة (دراماتيك)

وذلك ان الانسان لما انتبه في القرون الابتدائية لعوالم الموجودات - وكانت قريبة عهد بالحدوث - انتبه معه الشعر . فانبهر من رؤية بدائع المخلوقات واسكرته الدهشة حتى لم يكن أول كلامه الا « هائلة » . وكان تفكره تجلياً وجذباً وتصوره وحيّاً لقربه من موجد الكائنات وهو الله . فكان يناجي بقلبه ويهمل بلسانه كما يتنفس برئتيه . ولم يكن لعوده الا ثلاثة اوتار الخالق والنفس والمخلوقات . (٢) غير أن هذا السرائث يشمل كل ما في الوجود . وكانت الارض مقفرة تقريباً وليس عليها من بني آدم الا بطون وفصائل ولم توجد بعد القبائل ولا الشعوب وكان لهم آباء لا ملوك . وكل عرق من عروق البشر متمتع ببقائه ولا معرفة لافراده بالملكية ولا بالشرعية ولا بالخصومة ولا بالحرب . بل الكل لكل واحد ولكل . فكان الاجتماع الانساني شركة لا شيء فيها يضايق أفراد الانسان . فكانوا

- (١) قد يتغنى المرء بالشعر الحماسي ايضاً . لان الغناء انما هو تلحين الشعر موسيقياً كان اوحاسياً . ولكن الغالب في الغناء اظهار ما في نفس الانسان من الحس والشعور ولذا خصصناه هنا بالشعر الموسيقي الممتاز عن الشعر الحماسي بخصته الشخصية وكتاب الاغاني ألفه ابوالفرج الاصفهاني مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشيده . ولكنه جامع لكل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء فهو ديوان العرب
- (٢) لا يخفى ان فيكتور هوغو حينما ألف رواية كرومويل كان من حزب الملوكيين المتمسكين بالدين الكاثوليكي ولذا فهو يرى الثلاث في كل امر ومسئلة

يعيشون عيشة الرعاة والبدواة التي ابندأ منها كل تمدن وعمران . وهذه المعيشة أوفق ما يكون لسائنحات الفكر وهو اجس القلب . فكانت نفس الانسان سائحة على جناح الالهواء سائجة في بحر الخيالات وفكره اشبه بسحابة تديرها الرياح وتغير شكلها ووجهتها بحسب مهبها . فهذا هو الانسان الاول . وهذا هو الشاعر الاول . فهو شاب وموسيقى . ودينه الصلاة بمعناها اللغوي فقط وهو الدعاء وشعره الغناء . فهذا الشعر وهذا الغناء الذي للقرون الابتدائية هو « سفر التكوين » ثم زال عن الانسانية هذا الشاب رويداً رويداً . واتسعت فيها جميع الدوائر . وصار البطن قبيلة والقبيلة شعباً وامة . واحتشد كل مجتمع من هذا الاجتماع الانساني العظيم حول مركز مشترك وتأسست الممالك . وحلت طبيعة العمران محل طبيعة البدواة . وتبدلت الخيام بالقصور ومحطات الرجال بالمداين وتابوت العهد بالهيكل . وأصبح رؤساء هذه الدول المستحدثة رعاةً — للمواشي — بل للشعوب والامم . وتبدلت عصا الرعاية بصولجان الملك . ووقف كل شيء وتعين . واخذ الدين شكلاً مخصوصاً وانقلبت الصلاة من المعنى اللغوي الى المعنى المصطلح عليه عند أهل كل مذهب . وتميزت أقوالها وأفعالها بحسب ذاك المذهب . وضرب الاعتقاد نطاقه على العبادة . وعلى هذا الوجه اقتسم الكاهن والملك أبوة الشعب . وعلى هذا الوجه قامت مقام الشركة الابوية الجمعية الشيوقراطية وهي الدولة الجامعة أحكامها بين الديانة والسياسة . وازدحمت الشعوب والامم على سطح الكرة فتضايقوا وتخاصموا وانتشبت بينهم الحروب واصطدمت الممالك بعضها ببعض وطفئ قوم على قوم فاجوب هذا الطغيان مهاجرة الشعوب والامم وتفر يبينهم ورحلاتهم وتصور الشعر هذه الوقائع العظيمة . وانتقل بذلك من الافكار الى الاشياء وتفنن بالقرون والشعوب والممالك وصار حماساً وولد هوميروس . فهذا الشاعر في الحقيقة أحسن معرف للاجتماع الانساني في القرون القديمة . وكل ما في هذا الاجتماع بسيط وحامسي . والشعر عندهم دين والدين شريعة أي قانون . فبعد بكاره الدور الاول ظهرت طهارة الدور الثاني من ادوار الانسانية . واستولى نوع من الوقار والاحتشام على الاخلاق البيتية

والاخلاق العمومية . ولم تحفظ الشعوب من عوائد بداوتها الاحرمة الغريب ورعاية ابن السبيل . وصار للعائلة وطن ير بطها ونشأت محبة الوطن والدار وزيارة القبور . فالتعبير عن مثل هذا التمدن لا يمكن ان يكون باشعار الحماسة . وثقلبت اشعار الحماسة في اشكال كثيرة بدون ان تضع خاصتها المميزة لها . فاذا تأملنا كلام الشاعر اليوناني بندار وهو من أهل القرن الخامس قبل الميلاد والملقب بأمر الشعراء الغنائين لجودة قريحته في الشعر الموسيقي نجد كلامه كهوتياً أكثر مما هو أبوي وحاسياً أكثر مما هو موسيقي . وفي هذا الدور الثاني من أدوار العمران ظهر المؤرخون وجمعوا الآثار وأرخوا القرون ومع ذلك فظهور التاريخ لم يستلزم نحو الشعر من الوجود بل استمر التاريخ حماسةً وكان المؤرخ هيروودوس كأنه هو هيرودس ثن . ومن نظر في روايات التراجيديات القديمة التي ألفها شعراء اليونان ومثلوها على مراسيمهم تبينت له جلياً أساليب شعر الحماسة ورأى علوهم في كل شيء وتجاوزهم الحد في العظمة والجبروت والهيبة والفتخامة . فالأشخاص المثلة في هذه الروايات هم من الجبارين وانصاف الآلهة والآلهة . ومواضيع الروايات احلام وهواتف ومقدرات والواحدة تعداد نفوس وتشيع جنازات وحرب وغارات . وما كان ينشده الرواة من الاشعار كان يشدو به الممثلون . ففن التمثيل عند اليونان كان مقتصرًا على هذا فقط . وكانوا يبثون مراسيمهم على سفح الجبل بلا سقف يقي حر الشمس ومطر السماء وانما هي درجات بعضها فوق بعض على شكل نصف الدائرة المسمى عندهم (امفيتياتر) وموضع التمثيل على الارض في صحن المسرح وهو غاية في السعة والجسامة ويستوعب تمثيل معبد بفنائه وسراي بدوائرها وقصورها وابراجها ومدينة بأسواقها ومعسكر بمهمات وكذا محل المتفرجين يستوعب ثلاثين ألف متفرج . مع ان مراسيح الاوروبيين لا تستوعب الاربعة آلاف . والمسرح الفرنسي في باريس لا يستوعب الا ١,٤٠٠ ومرسح الاوبره فيها يستوعب ٢,٢٠٠ ومرسح الشاتله وهو اكبر المراسيح في باريس يستوعب ٣,٦٠٠ وكان التمثيل عند اليونان يبتدىء في الصباح ولا ينتهي الا في المساء وربما مثل في المرة الواحدة روايتين او اكثر . وكان الممثلون يفخمون اصواتهم

ويظمون قيافاتهم ويتبرقعون بالبراقع المناسبة للرواية حتى يحاكي الواحد منهم الجبار العنيد او البطل الصنديد الذي يمثل دوره . فيمثل برومته بن تيتان وهو مقيد بالسلاسل فوق جبل قفقاس والنسر يأكل في احشائه . لانه صور من طين الارض على هيئة الانسان ثم أراد ان يأخذ من نار السماء او نورها لينفخ فيه الروح فاغضب الآلهة وجازاه كبيرهم بذاك الجزاء على ما اقترفت يده . ويمثل أيضاً انتيغون وهي في أعلى الابراج تفتش عن أخيها الذي كان في معسكر الاعداء من الفينيقيين . وقد ذكر خبرها الشاعر سوفوقل في رواية نظمها قبل الميلاد بأربعمائة سنة وسماها (اديب الملك) ونسج على منوالها الشاعر الفرنسي فولثير وسمى روايته الفرنسية بهذا الاسم أيضاً . واديب هذا ابن ملك من ملوك اليونان قتل أباه وملك على قومه وتزوج بأمه بدون علم منه فلما وقف على حقيقة الامر لم يتحمل هذه المصيبة فقلع عيني نفسه بيديه وخرج من ملكه هاجاً وابنته انتيغون تقود به . ويمثل الممثلون أيضاً على مراسح اليونان مركباً كبيراً ينزل منه خمسون أديرة بما يتبعهن من الخدم والحشم كما في الرواية التي ألفها الشاعر ايشيل قبل الميلاد بخمسة قرون . فكان يجتمع على مراسعهم فخامة البناء مع فخامة الكلام . ويمزج التاريخ بالدين . وكان اول المضحكين عندهم من الكهان . وكانت العاهلهم احتفالات دينية ومواسم أهلية . فجميع الروايات المحزنة اليونانية هي من أشعار الحاسة . وجميع الشعراء المتقدمين عيال على هوميروس ورواياتهم مستنتجة من الايالة والاوديسة ومواضيع الجميع منها يعود الى محاصرة تروادة

٣٤ - الديانة المسيحية والادب

ثم أخذ هذا الدور الثاني من أدوار الشعر يتقاص ويتعمق كما تعمق العمران القديم . وجاء الرومانيون ونسجوا على منوال اليونانيين ونسخ شاعرهم فيرجيل عن هوميروس وانتهى دور الشعر الحماسي وفتح دور جديد للشعر والتمدن بظهور الديانة المسيحية . فالديانة الوثنية مادية ظاهرة والديانة المسيحية روحانية باطنية . فلما حلت احدهما محل الاخرى ودخل الايمان بالمسيح قلب التمدن القديم قتله ووضع في

جنازته المتميزة جرثومة التمدن الحديث وثبت بتماثيله دعائم الاخلاق . واول حقيقة جاء بها هذا الدين هي القول بوجود حيائين للانسان . احدهما فانية واثانية خالدة . احدهما على الارض واثانية في السماء . وأعلم الانسان بانه مركب من حيوانية ونطق اي من جسد ونفس . وبأنه نقطة الفصل المشترك . وهو في علم الهندسة النقطة المشتركة بين خطين والخط المشترك بين سطحين والسطح المشترك بين جسمين . او بأنه الحلقة المشتركة بين سلسلتين من المخلوقات احدها تتألف من الماديات والثانية من الروحانيات . احدهما تبتدي من الجهاد وترتقي للانسان . والثانية تبتدي من الانسان وتصل الى الله

ربما فقه بعض الحكماء المتقدمين شيئاً من هذه الحقائق ولكن أول من أوضحها وجعلها الانجيل الشريف . فأصحاب الديانة الوثنية خبطوا خبط عشواء وساروا في ظلام الليل على غير هدى ولم يفرقوا في طريقهم بين الحق والباطل . والبعض من فلاسفتهم افاض من نبراس حكمته على الاشياء نوراً طفيفاً لم يغني منها الا الجانب الاصغر وزاد في الظل الممتد وراء جانبها الاكبر . فنشأ من ذلك جميع تلك الاشباح والخيالات التي وردت في فلسفة المتقدمين واساطيرهم . لان اضاءة تلك الاشياء بتمامها لا يتيسر الا بنور الحكمة الالهية . فلهذا جاء امر الله قام النور الالهي مقام هاتيك الانوار المرتجة التي أتت بها الحكمة الانسانية . وكان فيثاغورس وبقرات وسقراط وافلاطون سرج الليل فجاء المسيح بن مريم (عليهما السلام) ضوءاً للنهار . فحيث كانت عبادة الاوثان ديانة مادية لم يخطر على بال الاقدمين انفريق بين الروح والجسد كما في الديانة المسيحية . بل اوجدوا شكلاً وهيئة لغير الماديات وشخصوا المعنويات . فكل شيء عندهم مرئي 'محسوس' متجسد . وآلهتهم ممتقرون لسحابة يخنفون فيها عن الابصار . فهم يأكلون ويشربون وينامون . وتصيبهم الجراح فتسيل منهم الدماء . ويلقى بهم من السماء الى الارض فيتحطمون كما حدث لفولكنين اله النار حينما حملت به أمه من (جوبيتر) المشتري كبير الآلهة ووضعت في أشنع صورة فاستنكت منه ان يكون ابنها ورمته به الى الارض فهبط على جزيرة لين

من جزر الممالك العثمانية وانكسرت رجله . وذهب لبركان اتنا ووضع فيه كور الحديد .
 فهو يخرج من وقمته ويشتمل في صنمته ابد الابدين ودهس الداهرين . ومن هولاء
 المعبودات ما هم آلهة ومنهم ما هم أنصاف آلهة فقط . وديانهم مملئة بسلسلة من
 الذهب يسكنها كبير الالهة . وشمسهم يجرها في مركبه اربع رؤوس من جياذ الخيل .
 وجههم هاوية عميقة يعين الجغرافيون فوهتها على سطح الكرة . وجنتهم على جبل
 اوليمبوس في تساليا يسكنها الالهة ويتلذذون بنعيمها . فالديانة الوثنية عجنت جميع
 المفتريات من اساطيرها في طينة واحدة وصغرت آلهتها وكبرت اوادها حتى تشابه
 الغاني بالحي الذي لا يموت . فالابطال الذين تكلم عنهم هوميروس في اشعاره
 كادوا يكونون أقراناً للمعبودين . فأبوا الفوارس اجاكس غضب على جوبيتر وهو
 راجع من محاربة تروادة وعلن الحرب عليه وعلى جماعته . واشيل عنزة الحروب
 اليونانية يضاها في القوة والشجاعة المريج (مارس) له الحرب وجلاد الفلك . بخلاف
 الدين المسيحي فإنه فرق بين المادة والروح . وحفر وادياً عميقاً بين الجسد والنفس
 ووادياً آخر بين الانسان والاله . فظهور النصرانية ونشر تعاليمها دخل قلب الناس
 شعور جديد لم يكن معروفاً للمتقدمين واتسعت دائرة هذا الشعور عند المتأخرين
 انساءً غربياً : فهذا الشعور هو المايلخوليا اي السوداء وهي أشد من الوقار المستولي
 على قلوب القدماء وأخف من الحزن . فالنصرانية وضعت في طبع المتدينين بها
 المزاج السوداوي وجمعت الصلاة للفقير كالغنى للغني وأسست بين الناس المساواة
 والشفقة والحرية . فمما أدخل الانجيل النفس بين الحواس ووضع الخلود وراء الحياة
 أصبح المتمسكون به يرون الاشياء بشكل جديد

وعدا هذا في التاريخ الذي انتشرت فيه الديانة المسيحية حدث سيفي العالم
 انقلاب كبير لم يتيسر معه ان لا يحصل انقلاب في العقول . لان الانقلابات التي
 حدثت قبل ذاك التاريخ كانت عبارة عن سقوط دولة وقيام أخرى ولم يكن لذلك
 تأثير كبير في قلوب العموم . بل المصيبة الخاصة من تلك الانقلابات كانت كاصعقة
 لا تصيب الا الاماكن العالية والمقامات المرتفعة فعبروا عنها باشعار الحاسة .

ففي الاجتماع الانساني القديم كان الفرد سافلاً حتي كانت المصائب لا تؤثر عليه الا اذا نزلت بيته وأصابته أهله . ولا يعرف الواحد من أهل تلك القرون الخالية البؤس ولا التماسه خارج الآلام البيتية . ولا كان يُسمع في تلك الاجيال بأن المصائب العمومية الحادثة في المملكة تمس المعيشة الفردية . فلما حدثت تلك الانتملاجات الكبيرة اِبان انتشار الديانة المسيحية وأصبحت الامم الاوروبية في هرج ومرج يتلاطمون كالأمواج في البحر العجاج وانقرض التمدن القديم باستيلاء الاقوام البربرية على ممالك الرومان حدث من ذلك تأثير في قلوب العامة وانفعال في نفس كل فرد من افرادهم . وأخذوا يفكرون في مصائب الدهر ومرارة الحياة وعرفوا بأن هذه الدنيا الفانية . هي الاهزر ولعب وكدر وتعب لا ينبغي للعاقل ان يغتر بها . فهذا الشعور الذي ولد اليأس في قلوب المشركين كما علم من حال الاديب الروماني قاتون ، ولد في قلوب المتنصرين المالميجوليا وهي السوداء

وفي ذاك التاريخ أيضاً تولد فبكر التجسس والاختبار . لان تلك الوقائع العظيمة كانت أشبه برواية كبيرة مثلت على مسرح الدنيا وشهد المتفرجون عواقبها المدهشة . فهذه الوقائع عبارة عن وثبة وثبها الشمال على الجنوب وتغير بسببها شكل العالم الروماني . فأصبح يقاسي نزاع الموت وبلغت روحه التراقي . فلما مات هذا العالم قام جمهور من النحويين والبيانين والسفسطائيين ينقاتلون على جنازته ويقلبون جسده الذي لا حراك به . ويشرحون ويفسرون ويديرون ويحللون ويناقشون ويجادلون كأنهم ذباب يتساقط على جيفة التمدن القديم . فمن سماعة هؤلاء المشرحين للعقول وحسن حظهم انهم وجدوا جيفة يجرون عليها اول تجارتهم ويسبرون قروحها بمسبارهم . فكان اول جسد شرحوه جسداً مميته

وعلى هذا الوجه نرى الآن ظهور جنية المالميجوليا والتفكر بجانب عفرية التحليل والتضاد . ونجد في أحد طرفي هذا الدور الانثقالى البياني الشهير لونيون (٢١٠ - ٢٧٣ م) ولد في حمص من سوريا والى باليونانية في علم البيان رسالة الاعجاز التي ترجمها بوالوالفرنساوية . ونجد في الطرف الآخر القديس اوغوستين (٣٥٤ -

٤٣٠ م) صاحب المؤلفات اللاتينية . فجميع أدباء القرون الوسطى استقوا افانين العلم والادب من حياض الروم في القسطنطينية . ولا يجوز لنا احتمار هذا الدور الانتقالي من أدوار الادب لان فيه النطفة التي تخلفت وولدت وكبرت حتى صارت عروساً نتمتع اليوم ببديع جمالها . فيكتبة ذاك الدور - ونرجو هضم هذا التعبير الحزم مع انه سوقى مبتدل - زبلوا رياض الادب ليحتني المتأخرون ثمارها

فحيث كان هناك دين جديد وأمة جديدة اقضى ان ينشأ على هذين الاساسين ابنية جديدة في الشعر . لان شعر المتقدمين كان حماسة صرفاً وبسبب تأثير الدين الوثني والفلسفة القديمة كان الشعراء لا يدرسون من الطبيعة الواجب عليهم تقليدها الا وجهاً واحداً وهو وجه الجمال . وينبذون وراء ظهورهم جميع مالا علاقة له بشيء من نموذج الجمال بدون ان تأخذهم رافة على صناعة الادب المقنضى لها تقاليد مافي الطبيعة من خير أو شر . فهذه الطريقة كانت في بادئ أمرها معنبرة . ولكن باضطرادها على قياس واحد زال رونقها وذهبت طلاوتها ونقصت قيمتها كما هو شأن كل ما اضطر على وتيرة واحدة . فلما ظهر الدين المسيحي جرّ الشعر الى الحقيقة ووضعه في مكانه . وصارت قريحة الشاعر النصراني ترى الموجودات بعين أوسع وأرق مما كانت تراها قريحة الشاعر الوثني . فشعرت هذه القريحة الجديدة بأن المخلوقات ليست كلها جميلة باعتبار الانسان بل الشنيع منها بجانب الجميل والمستظرف بقرب المنقبج والشر أكثر من الخير والظلام سابق النور والجد مخلوط بالهزل وكلام السخرية وراء الاعجاز بالفصاحة . فمالت القريحة في نفسها :

أحكمة الشاعر النسبية الجزئية أحسن من حكمة الخالق المطلقة الكلية ؟

أبلغ من حد الشاعر ان يقوّم ما اعوجّ على زعمه من خلق الله ؟

وهل الاثر والاجدع والاجزم أجمل من كامل الاعضاء ؟

وهل يحق لصناعة الادب ان تنزع بطانة الثوب الذي تردت به الانسانية والحياة والمخلوقات ؟

وهل يجوز نزع عضلة من الجسم او لولب من الدولاب ان أربد انتظام دورانه ؟

وهل من الواجب على المطرب ان لا يعرب ؟

ثم نظرت هذه القريحة الجديدة في وقائع العالم فوجدتها مضحكة مرهبة معاً واعتراها المزاج السوداوي بسبب الاعتقاد المسيحي وأثر عليها أيضاً الانتقاد الفلسفي المستفاد من ذلك الدور الانتقالي فحطت في الادب خطوة كبرى زلزلت بها العالم العقلي وقلبت عاليه سافله وحذت في الشعر حذو الطبيعة وخلطت في اخلاق المعاني النور مع الظلام وكلام السخرية مع الاعجاز بالفصاحة بدون ان تمزج أحدهما بالثاني . وبتعبير آخر جمعت في الشعر بين النفس والجسد وبين الحيوانية والنطق . لان الشعر والدين متلازمان والنقطة التي يسير منها أحدهما يسير منها الآخر . فأوجدت في الشعر نموذجاً جديداً وأسلوباً غريباً بالنظر المتقدمين . وشرطت فيه شرطاً قلب شكله وأصلح قالبه . فهذا النموذج وهذا الشرط هو كلام السخرية الذي يظهر في قالب الكوميديّة . فهذا هو الفرق الذي يفرق في نظرنا بين صناعة الادب الجديدة وصناعة الادب القديمة وبين الشكل الجديد الحي والشكل القديم الميت . او بتعبير اشهر من هذا ولو كان مبهماً هذا هو الفرق بين ادب الطريقة الرومانسية وادب الطريقة المدرسية

فيقول لنا حينئذ اهل الطريقة المدرسية :

— ها نحن أمسكناكم واخذناكم بالسنتكم . انتم نتخذون من القبيح نموذجاً للتقليد ومن كلام السخرية اسلوباً لصناعة الادب ؟؟؟ ولكن اين اللطافة في ذلك اين حسن الذوق ؟ اما تدرّون ان صناعة الادب ينبغي لها ان تقوم ما اعوج من الطبيعة ؟ اما تعلمون ان الواجب عليها اعلاء شأن الطبيعة ؟ اما تعلمون ان الاجدر بها انتخاب الاحسن مما في الطبيعة ؟ هل ادخل المتقدمون القبيح او السخرية في كلامهم ؟ هل مزجوا الكوميديا بالتراجيديا ؟ فاتبعوا يا سادة اساليب المتقدمين واقتفوا في فنون الادب اثر ارسطو و بوالو ولاهارب الخ

— وفي الواقع ان حجج اهل الطريقة المدرسية دامغة . ولكن لسنا مكلفين بالرد عليهم لاننا لا نريد وضع قواعد جديدة ولا تقييد العقل بالعقل كما قيده . اذ حمانا

الله من القواعد . . وانما نحن حقةنا وجود امر . فنحن مؤرخون واسنا منتقدين ولا
مشرعين . فهذا الامر موجود سواء اعجبهم او لم يعجبهم . فقريحة الشعر الجديد
تولدت من انضمام نموذج السخرية بالكلام الى نموذج الاعجاز بالفصاحة . وهي غزيرة
المنبع في ابتكاراتها مختلفة الاشكال في تصويراتها . بخلاف الشعر القديم فانه وحيد
الشكل وحيد الاسلوب لبساطته واضطراده على وتيرة واحدة . فهذا هو الفرق الحقيقي
والاساسي بين ادب الطريقتين الرومانية والمدرسية

نعم ان المتقدمين لم يجهلوا بالسكينة حقيقة الكوميديا ولا السخرية التي نحن بصددھا
اذ لا بد لكل شيء من اصل . وجرثومة الدور الثاني لا بد ان تكون في الدور
السابق عليه . ففي الايلياذة كل من (فولكين) و (نيرييت) نموذج لهذه السخرية
والكوميديا . والاول مثال الالهة وقد مر ذكر السبب في عرجه وليس على اعرج
من حرج . والثاني مثال للبشر ووصف هوميروس في الفصل الثاني من الايلياذة
هذره في المنطق وهذيانه في الكلام وبين كثرة جلبيته واستهزائه بجميع الناس حتى
بالمملوك . فكان في محاربة تروادة مضحكة اليونان يسخر بهم ويسخرون منه لان فيه
جميع النقائص والعيوب . ومن امثلة السخرية ايضاً مكالمة منيلاس مع بواب القصر
في رواية (هيلانه) التي نظمها الشاعر اليوناني اوريبيد في القرن الخامس قبل الميلاد .
ومن السخرية ايضاً ما نراه عند اليونان من الاشخاص الخارقة للطبيعة كالذي
نصفه الواحد انسان ونصفه الآخر سمكة والذي بعين واحدة في جبهته وعرائس الجن اللواتي
يظهرن على الانس كأنهن حور الجنان كل واحد من ذلك نموذج للسخرية . غير ان ادباء
اليونان الاقدمين لم يتمكنوا من ايفاء هذا الموضوع حقه بسبب ما في اشعار حماسهم
من الفخامة وما في رواياتهم من العظمة والجلالة . فالسخرية في كلامهم ليست في موقعها
لانها مستورة بجلالة الشكل الحماسي . واسلوب الحماسة يفوق فيها على اسلوب السخرية
وعندهما من الظهور والبيان . بخلاف الادباء المتأخرين فان اسلوب السخرية له في شعرهم
ورواياتهم موقع مهم . وهو في كل موضع من كلامهم . ويصورون بهذا الاسلوب
الشناعة والغشاعة من جهة والهزر واللعب من جهة اخرى . ويلحقون به في الدين

الف وسوسة وأباطيل غريبة وفي الشعر الف معنى مبتكر وتصور بديع فأسلوب السخرية هو الذي اوجد في القرون الوسطى جميع هذه المخلوقات التي اعتقد الناس وجودها بين الانسان والله من عوالم الجن والروح والملك وملؤها الهواء والماء والارض والنار فلم يبق محل في الفضاء الا وهي ساكنة فيه . ومنها من هو على اكتافنا يكتب أعمالنا ومنها من يأكل ويشرب معنا من طعامنا وشرابنا ومنها من يلبسنا لبس الجلد على اللحم ولا يخرج منا الا بالضرب الشديد والتعذيب . وهذه السخرية هي التي جعلت لشيطان النصارى قرون التيس وأرجل الخنزير وأجنحة الحفاش وجرت الشاعر دانتي الطلياني وملتون الانكليزي الى تصوير تلك الصور الجهنمية العجيبة ووصفها بالاوصاف الهائلة والاشكال الخيفة . حتى جاء في القرن السادس عشر المصور الشهير ميكل انجلو ونقش على جدار كنيسة في الماتيكان الذي يسكنه البابا صورة مفخخة بديمة سماها اليوم الآخر وهو يوم العرض والحساب . ولو قرا القرآن الكريم لصور جهنم ترمي بشر كالفصر كانه جماله صفر . ومن أمثلة هذه السخرية أيضاً الخادم الجني ميفستوفلس المرافق لفوست في الرواية المتقدم ذكرها ومنها الساحرات التي مركزهن في رواية ماقت وأنواع كثيرة من الخدام والرصد القائمين على حفظ الكنوز الخفية والعيون الجارية والاشجار الكبيرة . وكذا الحوت الذي يظهر في البحر كالجزيرة المعشبة والعمالين التي تحاكي في الضخامة الفيلة وتحرق بنفسها كل مخضر ونحو ذلك . فالمتأخرون عبروا عن جميع ما ذكر بكلام أفصح وأبلغ من كلام المتقدمين فأسلوب السخرية ماهو في نظرنا الا ضد قام بجانب أسلوب الاعجاز بالفصاحة ليميزه ويظهره . لان الاشياء تتميز بضدها . فهو أغزر المنابع التي فتحتها الطبيعة لصناعة الادب . فطريقة المتقدمين أورثت الملل والكلال باضطرادها على نسق واحد ومراعاتها لاسلوب واحد وهو أسلوب الاعجاز . لان الاعجاز على الاعجاز والبلاغة وراء البلاغة والبيان تلو البيان متعب للفكر مجهد للذهن . فاذا فصل بينهما بكلام السخرية تفكك العقل وارتاح مما أجهدته واضناه واستأنف السير نحو الاعجاز وهو في نشاط وارتياح بسبب توقفه بكلام السخرية والهزل . ثم لا يخفى ان الجميل

اذا قرن بالقبيح زاد جماله رونقاً وصفاء وتألواً واعتلاءً ولذا كانت الجنة التي وصفها ميلتون ألد وأشهى من جنان الابلزه التي وصفها هوميروس وفرجيل . لان ميلتون صور تحت جنة عدن جهنماً أشد دهشة ونكالاً من (تارتار) المتقدمين . ولولم يصف لنا دانتى حبس ذاك الجبار العنيد في برج مدينة بيزه وسد باب البرج عليه حتى هلك جوعاً بعد ان اكل أولاده لما وجدنا طلاوة لحسن فرانسواز دوريمى ولا لجمال بياتريس التي دخلت به جنان النعيم اذ لولم يكن في كلامه تلك الشدة والقسوة والعذاب الاليم لما كان فيه تلك الحلاوة الرائقة والمذوبة السائفة

ففي شمر المتأخرين الاعجاز بالفصاحة يشبه النفس الناطقة المطمئنة بتعاليم النصرانية . والسخرية أي المندر بالكلام يشبه الجسد الحيواني الذي في الانسان . فالنموذج الاول بتجرده من الهذيان وسلامته من العيوب حاز كل الحسن والجمال والرشاقة والاعتدال والجذب واللاطفة والركة والحلاوة . واخرج من خدور الافكار عرائس مثل جوليت واوفيليه اللتين صاغها شكسبير في رواية روميو وجوليت ورواية هاملت . ولعلهما تشبهان ليلى التي افتن بها قيس العامري على عهد الدولة الاموية ولقب لاجلها بمجنون ليلى . وفاطمة التي هام بحبها امرء القيس وقال لها « افاطم مهلا بمض هذا التدلل » . والنموذج الثاني ظهرت فيه جميع العيوب والعمل واتصف بالبشاعة والشناعة والهذيان والانهماك في الشهوات الحيوانية والذائل الدينية وفي جر المنافع ولو بايقاع المفساد والجنايات . فهو فسيق ، دني ، شره ، مهذار ، بنجيل ، طماع ، مرائي ، مفسد ، مفتن ، قواد ، غدار ، كذاب ، محتل . ويتمثل في صورة باصيل و فيغارو وتارتوف وهارباغون . والاول اسم راهب يحب مسامرة العاشقين على اهوائهم ولكنه كثير الطمع في اموالهم . والثاني اسم خادم شيطاني قواد لسيدته اوصله الى معشوقته ومكنه من وصلها بمهارة حيله ودسائسه . وهما من الاشخاص التي اوجدها مارشه في رواية (حلاق اشبيليه) (زواج فيغارو) ونكت بهما على اخلاق المعاصرين من الفرنسيين قبل الانقلاب الكبير اي في عهد لويس السادس عشر والخامس عشر وبين اسرافهم واستنزافهم . وفي سنة ١٨٥٤ اي في عهد الامبراطورية

الثانية انشأ احد الكتبة جريدة هزاية سماها (فيغارو) اشارة الى انها تخدم خدمة فيغارو مع التنكيت والتبكيت وعدم المبالاة بشيء ولا التعصب لامر فاصبحت جريدة الفيغارو اليوم من اعظم الجرائد اليومية في باريس . و (تارتوف) نموذج الرياء وهارباغون نموذج البخل وهما من أشخاص روايات مولير . ويمكن ان يعد من هذا القبيل ايضاً ابوزيد السروجي في وعظه للناس بالمواظظ الحسنة ثم جمعه الفلوس واشترائه للحم والخمر والجلوس للمنادمة مع غلامه كما هو موضح في مقامات الحريري . فالجميل ليس له الا نموذج واحد والقيبح له الف نموذج لان جمال الجليل ما هو الانسي بالنظر الى الانسان وباعتبار تركيب اعضائه . والقيبح له نسبة وعلاقة مع غير الانسان فهو جميل بالنسبة الى عموم المخلوقات وقبيح بالنظر للانسان وحده

ففي القرون الوسطى نرى لكلام السخرية موقفاً بجانب الاعجاز بالفصاحة وكثر استعمال السخرية في الادب في الرسم والتصوير والحفر وفي الاخلاق والمعادن كالرسوم التي احسن في تصويرها المصور الشهير ميكيل انجلو الطلياني والمصور مويلو الاسباني وابدع ما اتت به قريحته الراسمة التي نقش فيها كيفية الصعود الى السماء ثم ظهر شكسبير وصار ملك الشعراء كما قال دانتي عن هوميروس ومزج كلام السخرية بكلام الاعجاز وصاغ منهما الدرام . فشكسبير هو ابو الدرام والدرام هو الخاصة المميزة للدور الثالث من ادوار الشعر والادب المصري وهو جامع للعرب والمضحك من الكلام اي للكوميديا والتراجيديا .

٢٦ — الاجمال

فاجملاً لما تقدم لنا ذكره نقول :

ان الشعر له ثلاثة أدوار وهي الغناء والحاسة والدرام . ولكل منها مناسبة بدور من ادوار الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم . فالقرون الابتدائية غنائية . والقرون القديمة حماسية . والقرون الجديدة درامية والغناء يترجم في الازل . والحاسة تحنل بالتاريخ والدرام يصور حياة الانسان . وخاصة الاول السذاجة . وخاصة الثاني البساطة . وخاصة الثالث الحقيقة . فرواة اليونان — ويسمونهم رايزود وهم

اشبه برواة العرب الذي جاء منهم حماد الراوية وكانوا يطوفون القرى ويروون
اشعار بNDAR وهو ميروس وأيشيل - يدلون على دور الانتقال من الشعراء المغنين
أي الناظمين لشعر الاغاني الى الشعراء الحماسيين . والرومانيون اي مؤلفو الرومانات
وهي الاقاصيص الموضوعة يدلون على دور الانتقال من الشعراء الحماسيين الى الشعراء
الدراميين . وبظهور الدور الثاني ظهر المؤرخون . وبظهور الدور الثالث ظهر
الباحثون في حكمة التاريخ وبيان أسباب الوقائع وعلاها

وأشخاص شعر الاغاني عظام الاجسام طوال القامات والاعمار مثل آدم وقايل
وهايل ونوح . ويدخل في زمريهم عوج بن عناق . وأشخاص شعر الحماسة من
القوم الجبارين وهم أقوياء أشداء . مثل أشيل بطل لحروب اليونانية واستره آلهة
العدل وأوريست بن أغا ممنون الذي الف فيه شعراء اليونان رواياتهم ثم جاء فولتر
ونسج على منوالها روايته المشهورة باسم اوريست . ويدخل في زمريهم عنتر بن
شداد . وأشخاص الدرام هم بشر على الصورة الحقيقية للانسان مثل هاملت وماقبت
وأوتيلو الذين صورهم شكسبير في رواياته المشهورة بهذه الاسماء . وربما دخل في
زمريهم أبو زيد السروجي في مقامات الحريري والشيخ علي بن منصور الحلبي في
رسالة غفران المعري . ومنبع الاغاني الوهم والخيال ومنبع الحماسة العظمة والفخامة
ومنبع الدرام الحقيقة . وتنفجر هذه الينابيع الثلاثة من ثلاثة بحور كبيرة التوراة
وهو ميروس وشكسبير

فهذه هي أشكال الفكر المختلفة بحسب اختلاف القرون التي نقلب فيها الانسان
والعمران . وهي في ثلاثة ادوار الشباب والكهولة والشيخوخة فسواء نظرنا في أدب
أمة على حدتها أو في أدب البشر على وجه العموم فالنتيجة التي نستنتجها من جميع
ذلك واحدة . وهي تقدم الشعراء المغنين او الفنانين وهم الناظمون أشعار الاغاني
على الشعراء الحماسيين أي الناظمين شعر الحماسة وتقدم الشعراء الحماسيين على الشعراء
الدراميين . ففي فرانسا ما ليرب (١٥٥٥ - ١٦٢٨ م) سابق على شابلين (١٥٩٥ -
١٦٧٤ م) وشابلين سابق على قورنيل (١٦٠٦ - ١٦٨٤ م) والاول هو

الشاعر الفنائي (ايريك) الذي أصلح اللغة الفرنسية وقال فيه بوالو « وفي النهاية أتى ما ليرب » فذهبت مثلاً . وأما الثاني فأنقذ عليه بوالو في الشعر وسخر به حتى جعله أعجوبة وهزاً . ويلقب الثالث بأبي التراجيديا وهي الروايات الفاجعات . وكذا الحال عند قدماء اليونان فشاعرهم المسمى (اورفيوس) منقدم على هوميروس . وهوميروس منقدم على (أيشيل) الملقب بأبي التراجيديا اليونانية . وفي كتاب العهد القديم أي التوراة سفر التكوين منقدم على سفر الملوك . وسفر الملوك منقدم على سفر أيوب عليه السلام . وإذا نظرنا في أدب البشر على وجه العموم نرى التوراة قبل الإلياذة . والإلياذة قبل شكسبير .

ولا غرو في ذلك فإن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم يبتدىء في الترنم بما يتخيله . ثم يقص ما يعمل . ثم يصور ما يفكره . فالدرام بجمعه بين الاوصاف المتضادة كان اوعب للافكار الفلسفية والتصورات العميقة . وكل ما في الطبيعة وما في الحياة ينقلب في هذه الاشكال الثلاثة وهي الغناء والحاسة والدرام . لان كل ما في الوجود يولد ويعمل ويموت . ولو أتيح التعبير عن الحقائق البرهانية بالتخييلات الشعرية لقال الشاعر بلسان الشعر ان الشمس عند طلوعها ترنم بالغناء وعند القائلة أي الظهيرة تفاخر بالحاسة وعند الغروب تفجع بالمصيبة وهي الدرام . فهذا التعبير هو من باب الشعر وربما كان ضرباً من الجنون . انتهى كلامه ببعض تصرف وزيادة .

ثم شرع صاحب مقدمة كرومويل في الرد على أصحاب الطريقة المدرسية في تقسيمهم الشعر الى الاجناس التي سبق ذكرها في الكلام على بوالو وفي تحديدهم كل جنس منها بالحدود والتعاريف وفي تفريقهم بين التراجيديا والكوميديا . وابطل قولهم بلزوم وحدة الزمان والمكان في الروايات التمثيلية ولم يقبل من وحدتهم الثلاثة الا وحدة العمل . وقد ضربنا صفحاً عن ايراد كلامه في هذه المباحث لعدم التطويل ولان الروايات التمثيلية على ما فيها من الفوائد الجليلة سيفي أساليب البلاغة لم تشتهر لهذا الزمان بين المتكلمين بالعربية ولا اعتنى فحول أدبائنا في تأليف الروايات

لا بالنظم ولا بالسجع ولا بالثر كما فعلت النشئة الجديدة من أدباء اللسان العثماني .
وقد حض فيكتور هوكو في تلك المقدمة على تأليف روايات (الدرام) بالشعر
لا بالثر وقال : بأن بيت الشعر يحيط بالمعنى احاطة الثوب الافرنجي بالبدن ويضيق
عليه ويوضحه مما . ويمطيه شكلاً ألف وأدق وأتم من شكل النثر . ويديره علينا
كانه نوع من أنواع الاكسير الذي استخرجه الكيميائيون من خمر الذهب
وزعموا ان فيه لذة للشاربين وشفاء للاجسام من جميع الملل والاسقام . فبيت
الشعر على رأي فيكتور هوكو هو القالب الشفاف للمعنى . واذا تطف الشاعر في
نظمه وانشائه اكسب المعنى رونقاً لولا بيت الشعر لمرك ذلك المعنى غير ملتفت اليه .
فالشعر هو المقدمة التي تربط سلك المعاني او المنطقة التي تضم حواشي الهدم على
الجسم وتطويه طيات متناسبة بالهندام . والشعر يزيل من الالفاظ ما هو سوقي
مبتذل او عامي سخيف ويكسب المعاني حلاوة وطلاوة ورشاقة . سيما اذا اقتصر
الشاعر على استعمال الالفاظ المتعارفة بين الناس المتداولة على اللسان . وترك ما كان
وحشياً غريباً في اللغة . وعرض فيكتور هوكو بالذاهبين الى ان « أعذب الشعر
اكذبه » بقوله ليت شعري ما الذي يضع من الشعر ان دخلت فيه الطبيعة
والحقيقة ؟ وهل تنقص الخوصفة من أوصافها ان وضعت في أباريق الزجاج وختم
عليها ؟ كلا بل تصير حقيقاً ممتعة ختامها مسك يتنافس بها المتنافسون . وختم
المؤلف مقدمة كرومويل ببيان المقتضى للشاعر من النسيج على منوال الطبيعة (لان
كل ما في الطبيعة هو في صناعة الشعر) . وان كان الشاعر جيد القرينة فلا حرج
عليه في شيء من القواعد وله الحرية المطلقة في التصرف بجميع أفانين الشعر على
حسب ما يريته

فهذه خلاصة مقدمة كرومويل الشهيرة بين الادباء على اختلاف لغاتهم وتباين
مذاهبهم ومنها يفهم ان الطريقة الرومانية ارجعت الشعر الى الحقيقة والطبيعة والحياة
وتركت فيه التصنع وزخرفة الكلام واجراس الالفاظ . ولم تلتفت الى زعم اهل
الطريقة المدرسية بان زخرف القول من مقتضى الذوق السليم للشاعر . وازالت جميع

الحواجز التي تعرض امام سجية الطبع وتصد الفكر عن تصوثر الحقيقة والطبيعة وتوصيف الموجودات بحسب ما هو مغروس في جبلة كل منها سواء كان من صفات القبح او صفات الجمال بلا تفريق بينهما . ولذا نكثت بمض الجرائد بقولها على سبيل التقرير والتبكيث : « فليعش الانكليز والالمان ، فليعش الطبيعة الممجيبة الوحشية التي نشاهد جمالها في اشعار فيكتور هوغو واخوانه من أهل الطريقة الرومانية . » إشارة الى ان أساليب هذه الطريقة أول . ا . ظهرت في أدب الانكليز والالمان كما تقدم بيانه . وعرف بعضهم الروماني اي السالك نهج الطريقة الرومانية « بأنه رجل ابتدأ عقله في الاخلال » .

فمن امن النظر في المبحث الاخير من تلك المقدمة وجده مطابقاً لما ذكره أئمة البلاغة والادب في لسان العرب كابن بركة الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني وابن خلدون وأمثالهم . ولا حاجة لا يراد أقوالهم في هذا الباب فأنها معلومة ومحصلة وجوب نصرة المعنى على اللفظ لان الالفاظ خدم الماني . قال الباقلاني « والشعر وان ضيق نطاق القول فهو يجمع حواشيه . ويضم اطرافه ونواحيه . فهو اذا تهذب في بابه . ووفي له جميع أسبابه . لم يقاربه من كلام الآدميين كلام ولم يعارضه من خطابهم خطاب » وقول فيكتور هوغو بان الخاصة المميزة لادب الطريقة الرومانية عن غيره هي الجمع بين نموذج السخرية ونموذج الإعجاز بالفصاحة اشبه بقول المتنبي « وبضدها تتميز الاشياء » ولعل السبب الذي حمل المتنبي والمعري على ترك أساليب الجاهلية والنسج على منوال جديد هو الذي ذكره فيكتور هوغو من ان أساليب المتقدمين كانت معتبرة في بادىء امرها ثم باضطرادها على قياس واحد مراعاة للقوانين ثقلت على السمع وملها الطبع وسئرى حقيقة ذلك في التعريف الآتي للطريقة الرومانية

اما عدم تعرض فيكتور هوغو لادب العرب كما تعرض لادب الامم الاوروبية ولادب الفارسية العذبة فهو لجهله — سيما في ذلك التاريخ الذي ألف فيه مقدمته — بفصاحة العرب وإعجاز القرآن وحضارة الاسلام . فان التمدن العربي لم يدرس حق درسه ليومنا هذا . ولم يزل صاحبنا المستشرق البودابستي العلامة كولدير يحض

المستشرقين من كل أمة على التعاون والاشتراك في تأليف دائرة المعارف الاسلامية فان تم هذا المشروع وأنجزت ترجمة المهم من كتب الادب العربية ربما تيسر بعد ذلك للباحث الاطلاع على كنه العلوم والآداب الاسلامية . ولم يزل المستشرقون يترجمون في الصور بون القرآن الكريم وتفسير البيضاوي ترجمة صحيحة مدققة ولا يكملون في كل سنة اكثر من بضع صحائف ولم يترجم من كلام المعري سوى ورقة فيها نحو مائتي بيت نشرت بالالمانية في فيينا عاصمة النمسا سنة ١٨٨٨ م . فهم يتقربون من فهم حقيقة الادب العربي رويداً رويداً . وقد رأينا فيما تقدم ان صاحب أغاني رولان يمتد بان الاسلام فرع من عبادة الاصنام ويحسب ابولون من جملة اوثان المسلمين . ولو علم فولتير من احوال الشرق ما يعلمه علماء هذا العصر لاستحى من نفسه ومزق الرواية التي حررها باسم « محمد النبي » عليه السلام وقدمها للبابا بنوا الرابع عشر بعد ان سجد لديه وقبل قدميه (١) . ولما ذهب فيكتور هوغو لاسبانيا رأى آثار العرب في المباني والقصور والقناطر وقدرها حق قدرها ولكنه لم يفهم من الآيات والآيات المنقوشة على جدرانها اكثر مما نفهمه من احرف الصين المنقوشة على البضائع الصينية وسما على غاب الشاي . ولما ظهر رينان وصار شيخ العلماء في عصره درس ادب العرب الانداسيين من حيث الفلسفة ولخص ما حققه في كتاب سماه « ابن رشد » . فقام اليوم البارون قرا دوفو معلم العربية في الانستيتو الكاثوليكية بباريس ونشر كتابين احدهما « ابن سينا » والثاني « الغزالي » ودرس في الاول ادب العرب وفلسفتهم الشرقية وفي الآخر علومهم الكلامية والالهية فالكاتب الثلاثة المذكورة من أحسن ما حرر في هذا الصدد ولكن الموضوع يحتاج الى تعميق وتدقيق . ولا يتيسر ذلك الا بعد استخراج الكتب العربية وفهمها . وقد خبط رينان في بعض ما حرره عن الاسلام خبط عشواء وفتح اشارل ميزمر وأمثاله باباً

(١) قدم فولتير روايته المذكورة مع تحرير منه للبابا ختمه بالسجود بين يديه ولثم قدميه وكان ذلك منه رياء فحمله البابا على ظاهره وأجابه عليه بجواب لطيف مؤرخ

للاعتراض عليه . كما ان البارون الكاثوليكي تمصب على ابن سينا والغزالي في ما حرره .
ومع هذا قال رينان في الخطاب الذي نشره سنة ١٨٨٣ م « بان اور باظلت
منحطة في العلم والادب عن العالم الاسلامي وخاضعة فيها اليه حتى أوائل القرن
الثالث عشر . وفيه أخذ العالم المسيحي يرقى درجات العلم والعمران والعالم الاسلامي
يهبط في الدرك الاسفل من الجهل وانحطاط الحضارة . واندثرت علوم العرب بعد
ما لقيت جراثيم الحياة في جسم العالم اللاتيني الغربي واستمر المترجمون من سنة
١١٣٠ م الى سنة ١١٥٠ يتوجهون في مدينة طليطلة كتب العلم من العربية الى
اللاتينية وهم تحت حماية الاسقف ريموند . وفي السنين الاولى من القرن الثالث
عشر شرعت مدرسة باريس الكلية في تدريس كتب ابن رشد ارسطوطاليس
العرب . أما ارتجال البابا سيلفتر الثاني لطلب العلم في أشبيلية وان كان مشكوكاً فيه
فقسطنطين الافريقي علامة عصره لا شبهة في أخذه العلم عن المسلمين . « اه
وقسطنطين الافريقي الذي يذكره رينان ولد سنة ١٠١٥ م في قرطاجنة وبعد ان
حصل علوم الطب والحكمة صار كاتباً لاحد الامراء ثم دخل سلك الرهبنة في ايطاليا
وادخل فيها علوم العرب وله مجموعتان كبيرتان باللاتينية طبعتا في بال سنة ١٥٣٩ م
ودام قول فيكتور هوغو هو الممول عليه في الطريقة الرومانية الى ان اشتهرت
الطريقة الطبيعية (ناتوراليزم) في سنة ١٨٦٠ على عهد الامبراطورية الثانية وقام
أصحابها يناقشون فيكتور هوغو وشيعته وينقدون عليهم . على ان الرجل وان
ظهرت له معجزات في آيات البيان فهو ليس بنبي ولا تجب له العصمة عن الخطأ
والنسيان ومن هو الرجل الذي تحمد كل سجاياه ؟ ومن هو المبرأ من كل عيب ؟
وكفاه نبلاً انه خطا في الادب خطوة الامام ومهد الطريق لمن أتى بعده ولولا ظهور
الطريقة الرومانية لما ظهرت الطريقة الطبيعية ولا حصل ارتقاء ونهضة في الادب .
ثم ان مقدمة كرومويل وان بحث فيها المؤلف عن تاريخ الادب وبيان الخاصة
المميزة لادب الطريقة الرومانية عما سواه فهي احق بأن تكون تعريفاً لنوع الدرام
وحده وهو فن من فنون الشعر والادب . وأما التعريف الشامل لجميع ما حرر من

فنون الادب على نهج هذه الطريقة المستحدثة منظوماً كان او منشوراً فهو ما يأتي .
اذ من شرط التعريف ان يكون جامعاً للأفراد مانعاً من دخول الاغيار فيه . ولا يكفي
أن يكون منطبقاً على فرد من الأفراد فقط . وتعريف الطريقة الرومانية تعريفاً جامعاً
مانعاً ليس بالامر السهل ولا يتيسر الا بالنظر في الخواص الظاهرة والمشاركة بين
جميع فنون الادب المنسوجة على أساليب الطريقة الرومانية والمنشأة في قرايبها

٢٧ - تعريف الطريقة الرومانية

الطريقة الرومانية هي ادبٌ يبحث فيه عن مشاعر النفس وبدائع المخلوقات .
وهذا الادب من قسم الشعر الموسيقي او الغنائي الممتاز بخاصته الشخصية كما سبق
تعريفه وبيان الفرق بينه وبين شعر الحماسة والدرام . فاذا نظرنا في اعراض النفس
نجدها على نوعين احدهما اعراض قائمة بالنفس كالشعور بالحب والرجاء والشعور
بالغضب والياس والشعور بالفرح والطرب والابتهاج او بالحزن والنم والانتقاض
والثاني انفعالات تحصل للنفس بواسطة الحواس الخمس وهي البصر والسمع والذوق
والشم واللمس . فهذه الحواس منها ما هو حائز على الصفة التمثيلية للعالم كالبصر
والسمع وهما بهذه الصفة آلات يبني الانسان بها العالم الخارجي الذي يحمل صورته
في نفسه ومنها ما لم يحز على هذه الصفة التمثيلية بسهولة وبلا واسطة كبعض
الانفعالات العضلية وحاستي الشم والذوق عند اكثر الناس . فأهل الطريقة الرومانية
اكتفوا بالتعبير عن النوع الاول وعن القسم الاول فقط من النوع الثاني وصوروا
بدائع المخلوقات بصور يخال منها للقارىء أنه يسمع ويرى . كما يتضح لمن ظالم
وصفاً من أوصاف فيكتور هو كوفي مناظر الطبيعة وأصواتها وفي بيان حنين النفس
وانفعالاتها . وتركوا التعبير عن القسم الثاني من النوع الثاني أي عن الحواس التي
لم تحز الصفة التمثيلية لخلفائهم من المتأخرين وهم أهل الطريقة الطبيعية الذين قادهم
أميل زولا . فصور هذا الامام في الادب حقيقة كل ما بحث فيه وتكلم عنه ومثله
تمثيلاً حقيقياً وعبر عن حاسة الشم بما كتبه عن الهال وهو سوق الخضار في باريس

وجعل القارىء يشم ما فيه من روائح السمك والتديد فضلاً عما يسمعه من جلبة البائعين والمشتريين ويراه من السلع والمركبات وانهمالك الغادي والبادي في الاخذ والعطاء ثم اذا نظرنا فيما حرره الشعراء والادباء من أية أمة وفي أيّ لسان نجد منهم من يتكلم عن شعور وتصور . ومنهم الذين يقولون مالا يفعلون وينظمون قصائد الغزل والرثاء وهم لا يشعرون بشيء من الغرام أو التفجع ويمدحون الممدوح قبل معرفته ويصفون الحبيب قبل مشاهدته ويهيمون في ذكر الطلول والرسوم وفي التشبيه بالشمس والقمر والترشيح بكثرة الرماد وطول التجاذب حتى يلتبس الامر على السامع فلا يدري هل القائل من أهل القرن الرابع عشر للهجرة أم من الذين مضوا قبل البعثة . فمن شرط السالك نهج الطريقة الرومانية أن يتكلم عن مشاهدة وتصور وشعور واحساس وانفعال وتأثر واعتماد واقتران . واذا سمع المامي شيئاً من كلامه في الحب مثلاً قال هذا كلام عاشق محروق . والى ذلك أشار ابن رشيق فيما نقل عنه من كتاب العمدة بأن من بواعث الشعر العشق والانتشاء ومن شروطه الخلوة واستجدادة المكان المنظور فيه من المياه والازهار وكذا المسموع من غناء البلابل وظنين الاوتار . فاهتمامنا بانفعالات الشاعر التي ليست بانفعالاتنا و باحساسه الذي ليس باحساسنا انما هو نكوننا بشراً . والشاعر بشراً مثلاً . فبيننا وبينه مشاركة في الطبيعة وفي منبع الحس والانفعال . ويزيد الشاعر عنا باقتداره على الابانة عن المعاني الكامنة في نفسه ونفوسنا . لان له سجية الشعر وملكة راسخة في التعبير عن شعوره واحساسه . ولعل هذا مقصد ابن خلدون في قوله « المعاني موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا يحتاج الى صناعة . وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة . فالذي في اللسان والنطق انما هو الالفاظ وأما المعاني فهي في الضمائر . » قال الفيلسوف الالماني هيكل : « لا تكون شهوات النفس وعواطف القلب من معاني الشعر الا اذا كانت عامة ، مميّنة ، دائمة . » بحيث يكون الشعر المشتغل على شهوة من شهوات النفس أو عاطفة من عواطف القلب مؤثراً في كل من قرأه أو سمعه . ويكون هذا التأثير دائماً في جميع الازمان

مثل الايلياذة والاوزيسة وماها بهاراته وراما يانا المؤلفة قبل الميلاد بقرون كثيرة .
ولا يكفي أن يكون الشعر مؤثراً على فرد أو أفراد معدودة في مجلس أو مجالس
محدودة . وقول امرئ القيس « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » يؤثر على
جميع الخبيرين بلسان العرب في عصرنا هذا وفي العصور الآتية كما أثر على آباءنا
الاولين في العصور الحالية . فالكلام العالي المتين المنسوج على منوال الطريقة
الرومانية هو الذي تشخص فيه الانسانية . وتأثيره على السامعين انما هو من جهة
عمومه وشموله في تصويره ما في سواد القلوب من المثلث والفرام والهموم والاحزان ،
وفي وصفه المناظر المبهجة التي في الطبيعة ، وبيان ماها من الاشكال القريبة
البديعة . وفي استطلاعها حالة الانسان وحظه من هذا العالم على حد قول الشاعر العربي
سبحان من قسم الحظوظ - فلا عتاب ولا ملامه
أعشى وأعشى ثم ذو بهر وزرقاء اليلامه

فالسالك نهج الطريقة الرومانية لا يكتفي بقوله لا عتاب ولا ملامه بل يسأل
في كل موضع من كلامه من نحن ؟ الى أين ذاهبين ؟ ويفكر في هذا السراج الذي
يضيء فينا مدى العمر ثم ينطفئ بالموت . وفي أمر هذه الحياة التي تجري كالسيل
ثم تنقطع . فيستفهم عن هذه الانانية المحتفية فينا وعن معنى (أنا) ؟ ويقول ما هو
هذا الموت الذي يطفىء سراج العمر ويقطع مجرى الحياة ؟ هل هو نهاية أو وقفة
أو باب تفرّج به من برزخ لبرزخ ؟ ماذا يوجد وراء ذلك ؟ والحاصل ما هو السبب ؟
ما هو سبب (أنا) الموجود ؟ ما هو سبب هذا العالم الذي اعكسه في نفسي ؟ فان
كان المفكر بما ذكر قادراً على تأليف شيء موافق لاساليب الطريقة الرومانية فهو
يفتش عن هذا الشيء في خفتان قلبه وفي مناظر الطبيعة . فأدب الطريقة الرومانية
تشف معانيه عن الحشبة الحاصلة لاصحابه مما وراء الطبيعة . وهذه هي الخاصة المميزة
له والمظهرة اعظمه واعتلائه . وفي تصويره الاحساس الباطني وتوصيفه مناظر الطبيعة
يعطي الانسان فكراً عن الامر الكلي ويرمز له عن المجهول
فموضوع أدب الطريقة الرومانية هو مجموع هذه الانفعالات الشخصية المختصة

بكل فرد من أفراد الانسان وتلك الشروط الضرورية للجمعية الانساني . فهذا
جل ما يبحث فيه السالكون نهج الطريقة الرومانية . ويبقى عليهم ما ذكرناه في
قواعد الطريقة المدرسية من تمام النسبة بين أساس الفكر وشكل التعبير أي فصاحة
اللفظ و بلاغة المعنى ووجود الموازنة بين التخييل الشعري و بين العقل واتباع الصديق
والحقيقة في الشعر . فأهل الطريقة الرومانية لا يهتمون لا بالقواعد التي وضعها علم
الروح (بسميكولوجي) ولا بالحقائق العلمية . وليس لهم عناية لا بصناعة التفكير ولا
بصناعة العقل . وإنما دأبهم في النظام والنثر الاحساس . بخلاف أهل الطريقة
المدرسية فإن دأبهم في ذلك العقل والذوق السليم . وهذا ما جعل لمؤلفاتهم التي
ألفوها في القرن الثامن عشر وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر فائدة
وقيمة وندرة . فالطريقة الرومانية تتميز عن الطريقة المدرسية بأمرين أحدهما نفي
والثاني عكس قضية :

أما النفي فهو عبارة عن حذف القواعد التي أسست عليها المؤلفات الادبية
ونفيها عن الادب . وكانت هذه القواعد على ثلاثة أنواع . (١) تعريف كل من
الفنون الادبية على حدته كالغزل والمدح والرتاء والهجاء . . . الخ والتفريق بينها
تفريقاً لا اتصال فيه . (٢) وضع قواعد لكل فن من هذه الفنون من شأن هذه
القواعد توحيد النموذج وتعليبه على جميع الامزجة المختلفة . (٣) قواعد الذوق وهي
التي تعين حدة الشاعر في اختيار أساليب التقليد وكيفيات التعبير وتحصر فكره

وأما عكس القضية فهو عبارة عن العمل بضد ما عمل به أرباب الطريقة
المدرسية . فأدب القرن الثامن عشر في جميع أوربا كان على أساليب أدباء
الفرنساويين الذين نبغوا في عصر لويس الرابع عشر أي في القرن السابع عشر مثل
كورنيل وراسين وبوالوومواير وهؤلاء نسجوا على منوال المتقدمين من اليونان
والرومان واختاروا مواضيعهم من القرون القديمة كما هو الحال في رواية (استير)
و (اتالي) و (اندروماق) الخ . وأما أهل الطريقة الرومانية فأتخذوا مواضيعهم
من القرون الوسطى والبلاد الاجنبية وتاريخ النصرانية كما هو الحال في رواية

(فوست) و (كليوم تل) وجميع روايات فيكتور هوغو التمثيلية
 فالطريقة الرومانية وسمت أولاً دائرة الادب . أوبالحري نقلت هذه الدائرة
 من مركزها مركز آخر . ثم مزجت أساليب الفنون الادبية من تراجيديا وكوميديا
 بعضها ببعض . فنشأ عن ذلك تشويش في بادئ الامر ثم ظهر من هذا التشويش
 ترتيب جديد . وجاء الادباء بشعر موسيقي وأدب مبهج وتاريخ حي . فالطريقة
 الرومانية أزلت تلك الأساليب المهيئة المحدودة التي من شأنها أن تمنع الشاعر من
 أن يتصرف فيها بفكره واختياره كما أنها أزلت عن السبك والانشاء هاتيك العوائد
 الاستبدادية التي من خصائصها أن تصفي الهامات الشاعر وترفع منها الغرابة .
 فبتغييرها أساليب الفنون والقواعد والذوق واللغة والمروض وضمت الادب في قالب
 غير معين . وسافت أدباء العصر الجديد للتخري بكل حرية على أساليب وقواعد
 وفنون جديدة . فعثروا أول الامر على قواعد الطريقة الطبيعية وهم الآن شارعون
 في وضع قواعد للطريقة الانسانية . ويتقربون بذلك الى الكمال شيئاً فشيئاً ويرقون
 ممارج البلاغة درجة فدرجة

فاذا تأملنا كلام المعري ومن سلك مسلكه من الشعراء نجد فيه اهتماماً زائداً
 بأمر الآخرة وبما بعد الموت وتفكيراً عميقاً في خلق السموات والارض ودهشة مقلقة
 وحيرة زائدة وانفعالات نفسانية واحساساً غريباً . فكان كلامه يدخل تحت التعريف
 المتقدم ذكره للطريقة الرومانية . ولكن بسبب فقد حاسة البصر التي لها المكان
 في هذه الطريقة لم يتيسر له وصف الطبيعة وصفاً لاثقاً بها وبفصاحة لسانه . ولا
 حاجة لايراد مثال من كلام المعري فان كل كلمة من اللزوميات تشع بهذه الدهشة
 والخشية والحيرة والانفعال والاحساس والتألم ألماً يهون معه الموت ولا يحسب بجانبه
 مصيبة . وهذا بخلاف الجاحظ الذي يقول في أول كتاب الحيوان :

« جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة سبباً ،
 وبين الصديق نسباً ، وجبب اليك الثبوت ، وزين في عينك الانصاف ، وأذاقك
 حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عز الحق ، وأودع صدرك برد اليقين ، وطرده عنك

ذل اليأس ، وعرفك ما في الباطل من الزلة . وما في الجهل من القلة » . فهو بعيد عن القلق والحيرة مثبت في الفكرة . وتأليف الكلام على هذا النمط يسمى طريقة الجاحظ وهي مخالفة لطريقة السجع .

وقد تصدى ابن رشيق (٣٩٠ - ٤٦٩ هـ) لما تصدى اليه بوالو ووضع كتاباً في قواعد الشعر سماه العمدة . قال ابن خلدون « وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة واعطاها حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله » . فليت شمري هل اطلع على شيء من مؤلفات اليونان في قواعد الادب والبيان كالذي ألفه أرسطوطاليس وترجم شيئاً منه ابن رشد في القرن السادس للهجرة والذي ألفه البياني لونيخ الحمصي وترجمه بوالو للفرساوية وسماه (رسالة الاعجاز) فان أدباء العرب كان لهم عناية بالقواعد الادبية باعتبار انها من جملة المنطق والفلسفة وان لم يعتنوا بأشعار اليونان ورواياتهم التمثيلية . وكان ابن رشيق في القيروان فلما حدثت فيها الفتنة فرّ منها الى جزيرة صقلية ونزل مدينة (مازر) وأقام بها الى أن توفي ودفن بمقبرتها . وكان الافرنج مستولين على بعض الجزيرة والمسلمون في بعضها الآخر . ولعل ذلك كان على عهد رجار الاول (روجر) . ونظن البعوض آذى ابن رشيق أيام فراره ومحنه حتى قال :

يارب لا أقوى على دفع الأذى وبك استعنت على الضعيف الموزي
مالي بعثت اليّ ألف بموضة وبعثت واحدة الى غرود

وله غير كتاب العمدة أيضاً (النموذج) وكتاب الشذوذ وهو جامع لشواذ اللغة و (قراضة الذهب) . وقد تصدى لوضع قواعد الشعر وبيان أساليبه كما يفهم من القصيدة الآتية المفردة له وهي أشبه شيء بقصيدة بوالو التي جمعت فأوعت قال :

لئن الله صنعة الشعر ماذا من صنوف الجهال منه لقيما
يؤثرون الغريب منه على ما كان سهلاً للسامعين متينا
ويرون المحال معنى صحيحاً وخسيس الكلام شيئاً ثميناً
يجهلون الصواب منه ولا يد رون للجهل انهم يجهلونا

فهم عند من سوانا يلامو - ن وفي الحق عندنا يعذرون
 اما الشعر ما يناسب في النظم وان كان في الصفات فنونا
 فأتي بعضه يشاكل بعضاً وأقامت له الصدور المتونا
 كل معنى أتاك منه على ما تبنى ولم يكن أويكونا
 فتناهى من البيان الى أن كاد حسناً بين الناظرينا
 فكان الالفاظ منه وجوه والماني ركن فيها عبونا
 فاذا ما مدحت بالشعر حرّاً رمت فيه مذاهب المشتينا
 فجعلت النسيب سهلاً قريباً وجعلت المديح صدقاً مبينا
 وتعليت ما يهجن في السمع وان كان لفظه موزونا
 واذا ما عرضته بهجاء عبت فيه مذاهب المرقينا
 فجعلت التصريح منه دواءً وجعلت التمر يض داء دفيناً
 واذا ما بكيت فيه على الما - دين يوماً للبين والظاعينا
 حلت دون الاسى وذلت ما كا - ن من الدمع في العيون مصونا
 ثم ان كنت عاتباً جئت بالوعد د وعيداً وبالصعوبة ليناً
 فتركت الذي عبت عليه حذراً آمناً عزيزاً مهيناً
 وأصح القريض ما قارب النظم وان كان واضحاً مستبيناً
 فاذا قيل أطمع الناس طراً واذا ريم أعجز المعجزينا

فذكر ابن رشيق من صنوف الشعر أو فنونه المدح، والنسيب، والهجاء
 بالتصريح أو بالتمريض، والرثاء، وفرقة الاحباب، والعتاب بالوعد أو بالوعيد
 وذكر غيره من هذه الصنوف بكاء الديار وأهلها فقال :

واذا بكيت به الديار وأهلها أجريت للمحزون ماء شؤونه
 فبوالوذكر هذه الاجناس أو الانواع في قصيدته (صناعة الشعر) وزاد عليها
 التراجيديا والكوميديا والابوبة وعرف كل نوع منها وجعل له أحكاماً وقواعد كما
 مر . وتوسع في هذا البحث حتى تألف من كلامه رسالة مطولة